د. نهى الزيني

أيام الأمازيغ

أضواء على التاريخ السياسي الإسلامي



دار الشروق

أيام الأمازيغ

أيام الأمازيغ

أضواء على التاريخ السياسي الإسلامي

د. نهى الزيني

تصميم الغلاف: عمر الكفراوي

الطبعة الأولى ٢٠١١

الطبعة الثانية ٢٠١٢

تصنيف الكتاب: تاريخ

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ١٥٦٥٠/ ٢٠١٠
ISBN 978-977-09-2901-8

د. نهى الزيني



أضواء على التاريخ السياسي الإسلامي

دار الشروق

المحتويات

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ (محمد: ٣٨)

صدق الله العظيم

وتمضي القافلة

هكذا كانت إرادة الخالق البارئ تبارك اسمه منذ أن أبدع الأرض وما عليها وإلى أن يرثها سبحانه وما عليها: أن يكون شكل الأرض كرويًا لتبدو هيئتها في تناسق كوني بديع مع فطرة التعاقب المتوالية بين شروق يعقبه غروب يبزغ بعده فجر جديد، وبين حياة غايتها موت ثم تدب الحياة في مخلوقات أخرى تترى بلا انقطاع، وأن يكون خلق الإنسان من ضعف ويغدو قويًا ثم يمسي ضعيفًا مرة أخرى، وأن تولد الحضارات وتزدهر ثم تشيخ وتضمحل وتتلاشى لتبزغ شموس حضارات جديدة وليدة ترث ملكها وتحل محلها.

إلا الإسلام...

فإنه لا يشيخ أبدًا ولا يضمحل ولا تغرب شمسه فهو النور الآتي من الأزل والذي غمر الأرض بهبوط أول الموحدين إليها: آدم وزوجه، واستمر شعاعه بإرسال ملائكة السماء يلقون في روع رسل الله على الأرض وحي الله لتستمر قافلة التوحيد عبر الزمان لا تحيد عن طريقها وإن قل أتباعها وتبعثر زادها وناوشتها وحوش الفلاة، وحين يعز المسير لخلل في قيادة القافلة يهرع من يقوم بأمرها ويمسك بزمامها ليخطو بها ومعها ناشرًا نور الرب تقدست أسماؤه في ربوع الزمان والمكان.

فالقافلة لا تتوقف أبدًا ولا تحيد عن طريقها وإن تخلى المتخلون وانحرف المنحرفون فهي ماضية في سبيلها تنفي خبثها فينضح طيبها، لا ينجو إلا من لحق بها ولا يخيب إلا من تاه عنها أو حاول أن يضع العراقيل في طريقها، وإن فريقًا أعرض أو تولى استبدل

الله به فريقًا خيرًا منه يرد عليها عافيتها ويعيد لها نشاطها مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[1]، فليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب، ولا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

وهكذا مضت دولة الإسلام التي نشأت في المدينة المنورة مع هجرة رسول الله ﷺ وصحابته إليها من نصر إلى نصر ومن فتح إلى فتح تنشر نور التوحيد الخالص ودين الله الحق في ربوع الدنيا لتخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وتحقق أمل المستضعفين في الأرض الذين استهزأ المشركون بهم وهم يومئذ قلة في مكة يوقنون بوعد الله لهم الذي بشرهم به على لسان رسوله ﷺ بأن الله سيبدل ضعفهم قوة وستدين لهم ممالك الأرض فقال ﷺ: «عصبة من المسلمين يفتحون البيت الأبيض، بيت كسرى»[2]، فكان كفار قريش يلقون المسلم حافيًا ممزق الثياب فيتضاحكون منه وهم يقولون في سخرية: «مرحبًا بوارث ملك كسرى»، كما كان هذا الوعد الذي بدا يومها مجرد شطحات خيال سببًا في كشف زيف المنافقين وضعيفي الإيمان حتى قال أحدهم: «يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن على خلائه».

لكن اليقين بوعد الله الحق الذي سكن القلوب هو الذي جعل جيلًا واحدًا من المؤمنين يتحولون من قلة مضطهدة في إحدى قبائل صحراء شبه جزيرة العرب ـ التي يتحكم فيها ملوك الحيرة المناذرة والغساسنة الموزع ولاؤهم وخضوعهم بين أصحاب أعظم حضارتين يقتسمان نفوذ العالم وقتها: الفرس والروم ـ إلى ورثة للحضارتين معًا، وذلك مصداقًا لقول الرب تبارك وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[3]، وتحقيقًا لنبوءة رسوله ﷺ حين قال لأتباعه وهم بعد في مرحلة استضعافهم: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»[4].

---

(١) سورة محمد، آية ٣٨.

(٢) صحيح مسلم، ومسند الإمام أحمد، عن جابر بن سمرة.

(٣) سورة القصص، آية ٥.

(٤) البخاري ومسلم، ومسند الإمام أحمد، عن طريقي أبي هريرة وجابر بن سمرة.

ولأن الفارق بين المؤمنين الصادقين وبين غيرهم من ضعيفي الإيمان أو المنافقين أن الأولين يصدقون بوعد الله حتى قبل تحققه، بينما الآخرون لا يصدقون به إلا بعد أن يصبح واقعًا ملموسًا وهو الفارق المستمر إلى قيام الساعة، فقد انطلق جنود الله المصدقون بوعد الله ورسوله ينشرون دينه في الأرض وقد استقر في قلوبهم يقين لا يتزعزع بوعد آخر ورد على لسان رسول الله حين تنبأ بفتح القسطنطينية ورومية ـ القسطنطينية هي إستامبول الآن ورومية هي روما الآن ـ وحين سُئل ﷺ: أي المدينتين تُفتح أولًا؟ قال: «مدينة هرقل تفتح أولًا». يعني القسطنطينية[1].

ولقد تحقق الوعد الحق ففُتحت مدينة هرقل وظلت لقرون عديدة عاصمة الخلافة الإسلامية ولا يوجد مؤمن يحيا على وجه الأرض اليوم إلا وقلبه ممتلئ يقينًا بأن روما مدينة البابا سوف تُفتح يومًا بعز عزيز أو بذل ذليل كما قال نبينا الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، وها هي البشائر تترى بدخول ملايين الأوروبيين في الإسلام وما زلنا نسمع استغاثات قيادات دينية وسياسية هناك تحذر من أن أوروبا سوف تصبح إسلامية خلال عقود قليلة من الزمان، وكلما أوغلوا في حرب الإسلام والإساءة للمسلمين واضطهادهم تضاعف عدد الداخلين في دين الله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[2].

وفي الطريق إلى تحقيق وعد الله، وبعدما تمكن المسلمون من توطيد أركان دولتهم في المشرق، انطلقوا ينشرون النور في طريقهم إلى المغرب فكان فتح تونس بعد الموقعة التي قادها عبد الله بن الزبير وتمكن فيها من هزيمة الروم وبعدها انتشر الإسلام غربًا، غير أن استقرار الدولة الإسلامية لم يك في بلاد المغرب بالسهولة ذاتها التي كانت في بلاد المشرق وذلك بسبب الطبيعة الخاصة لقبائل البربر، فمن هم البربر وما حقيقة الدور الذي لعبوه في تاريخنا السياسي؟

---

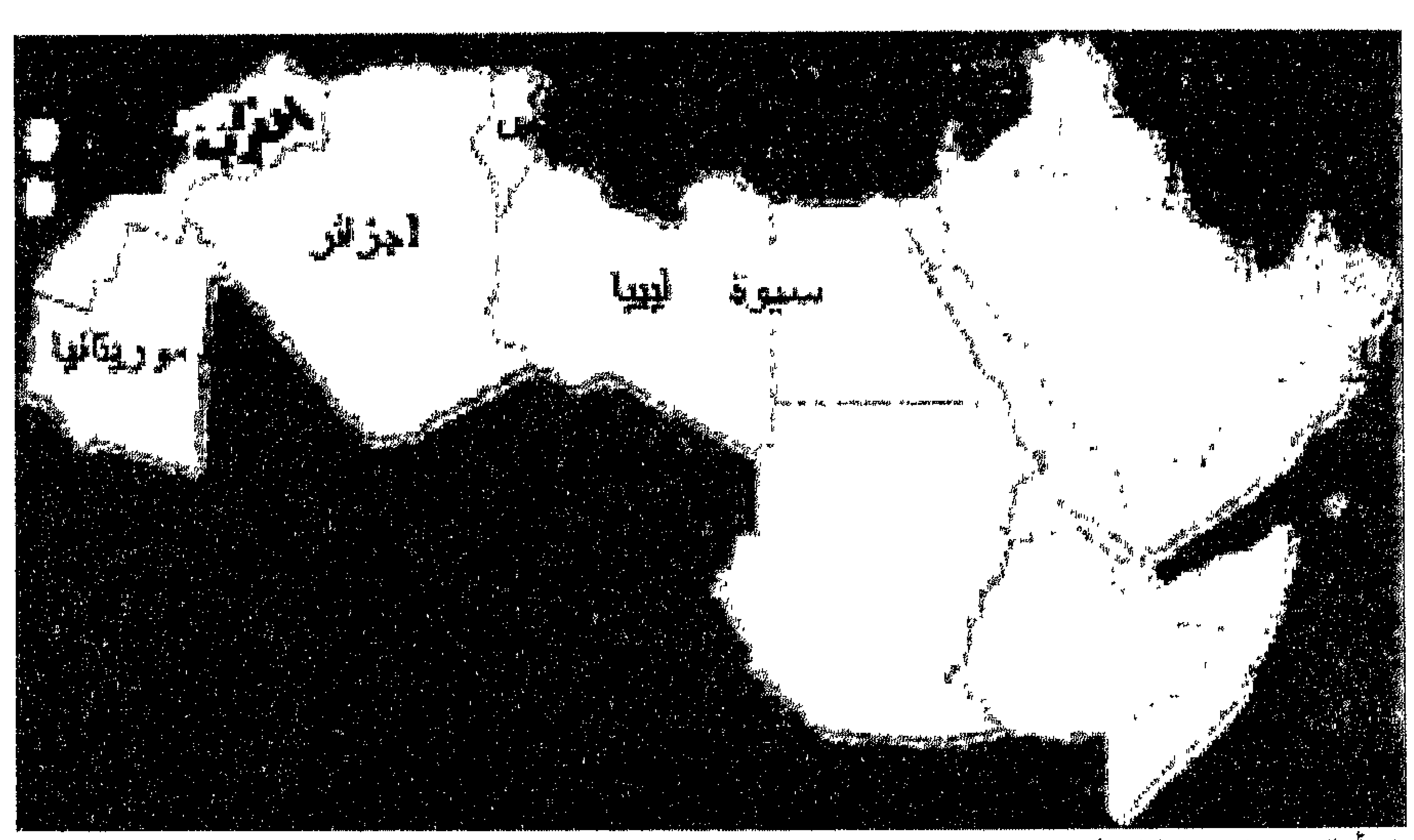
(١) مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو.

(٢) سورة الأنفال، آية ٣٠.

البربري الأبيض

من واحة سيوة في أقصى صحراء مصر الغربية على حدودها مع ليبيا إلى جزر الكناري - الجزائر الخالدات - في المحيط الأطلسي - بحر الظلمات كما أطلق عليه قديماً - ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالًا حتى موريتانيا جنوبًا تنتشر منذ قديم الأزل وحتى اليوم مجموعة من القبائل البدوية الصحراوية تسمى «قبائل البربر».

وقد أطلقت الإمبراطورية الرومانية عليها هذا الاسم العنصري الاستعلائي «Barbarus» الذي كانت تطلقه على الشعوب الخارجة عن نطاق وسيطرة الحضارة



١ - أماكن تواجد قبائل البربر.

الرومانية؛ وذلك لكون هذه القبائل استعصت على الحكم الروماني وقاومته بشراسة فلم تخضع له ولم تدخل في طاعته كباقي الأمم، وهو الاسم الذي ظل يلازمهم حتى اليوم، خاصة وأن المسلمين الفاتحين انتقلوا به من المعنى الروماني السلبي إلى معنى أكثر إيجابية يرتبط بنطقهم للغة الأمازيغية التي يتحدثون بها والتي تحوي رطانة أعجمية غير مفهومة لدى العرب فسموها بربرة من بربر الأسد؛ أي زأر بأصوات غير مفهومة.

أما عن الأصول العرقية لقبائل البربر، فلم يختلف علماء الإنثربولوچي في أصول شعب كما اختلفوا بالنسبة للبربر باعتبارهم السكان الأصليين لمساحة شاسعة من الأراضي التي يُطلق عليها «المغرب الكبير»، وربما أدى التطور الكبير في الدراسات الجينية إلى حل قاطع لهذه الإشكالية، لكننا بدون الانحراف عن سياقنا الرئيسي وفي محاولة منا فقط لكي نستكمل الإطار الذي ستدور بداخله الأحداث فإننا سنستبعد في عرضنا هذا الأساطير والروايات المرسلة التي قيلت في أصول البربر اكتفاء بالإشارة السريعة إلى الآراء الرئيسية الموثقة:

- فالعديد من الباحثين ـ وبخاصة الأوروبيون منهم ـ يرون أن الأصول البربرية ترجع إلى الدول الإسكندنافية شمال أوروبا التي هاجرت إليها من منطقة القوقاز قبل الميلاد مجموعة من القبائل الهمجية تسمى بقبائل الفاندال ثم اجتاحت أوروبا واستقر بعضها في فرنسا وإسبانيا بينما عبر البعض الآخر البحر المتوسط جنوبًا حتى استقر في صحراء المغرب، وهم يدللون على ذلك بالتقارب الشكلي بين البربر وسكان شمال أوروبا الذي يتمثل في البشرة البيضاء والعيون الزرقاء والشعر الأشقر إضافة إلى وجود تشابه هام بين اللغات الجرمانية التي يتحدثها الفاندال واللغات الأمازيغية التي يتحدث بها البربر، ومما يؤيد هذا الرأي أيضًا أن قدماء المصريين أبرزوا في رسومهم البربر خاصة من قبائل الليبو التي اجتاحت مصر قادمة من الصحراء الليبية واحتلتها خلال فترة من فترات التاريخ، وكذلك الذين استعان بهم رمسيس الثاني كجنود في جيشه، بملامح أوروبية مميزة عن الملامح المصرية السمراء.

- بينما يرى عدد من الباحثين ـ خاصة من النسابة العرب ـ أن للبربر أصولًا عربية ثم اختلفوا في ذلك: فالبعض قال إنهم من الكنعانيين الذين طُردوا من فلسطين بعدما

قتل النبي داود ملكهم جالوت؛ وهو الرأي الذي انحاز إليه ابن خلدون، وذهب آخرون إلى أن أصل البربر من اليمن الذين تفرقوا بعد سيل العرم واختلطوا بالقبط المصريين أثناء هجرتهم غربًا.

- أما الشعوبيون من أصحاب النزعة الأمازيغية فيرون أن أصل البربر هو الشعوب القديمة التي سكنت الصحراء الغربية منذ فجر البشرية وأنهم لم يهاجروا إليها لا من الشمال ولا من الشرق.

والحقيقة أنه قد يبدو منطقيًا اعتماد ما ذهب إليه بعض الباحثين من التوفيق بين كل ما سبق: إذ يمكننا القول إن شعوبًا قديمة سكنت صحراء شمال إفريقيا الكبرى وانضمت إليها قبائل الفاندال القادمة من شمال أوروبا وكنعانيون من أرض فلسطين وعرب من اليمن ثم اختلطوا بشعوب السودان جنوب الصحراء، وهذه التركيبة العرقية يظهرها لنا حتى اليوم اختلاف ألوانهم الذي يتراوح بين اللون الأشقر خصوصًا في الجزائر والمغرب وبين الحنطي الضارب إلى الحمرة أو الأسمر الضارب إلى السواد مع ملامح أوروبية منمنمة وهو ما يبدو في طوارق موريتانيا والعشائر البربرية في صحراء مصر وليبيا.

وينقسم البربر إلى مجموعتين كبيرتين تضم كل منهما عددًا من القبائل وفروعها:

١ـ البرانس: ومنها قبائل صنهاجة وكتامة وجزولة، وأكثرهم أهل حضارة واستقرار إذ يعيشون على الزراعة في الواحات والسهول والجبال الخصبة لكن هذا لا يمنع أن أكبر وأعظم قبائلهم وهي صنهاجة تعيش عيشة البداوة في الصحراء وتعمل أساسًا بالرعي حتى سُميت «صنهاجة الصحراء»، وترجع تسميتهم بالبرانس إلى ارتدائهم «البرنس» وهو ذلك الرداء المعروف ذي غطاء الرأس المخروطي الذي ما زال يعد حتى اليوم اللباس الوطني المغربي.

٢ـ البتر: ومنها قبائل أداسة ونفوسة وبنو لوا التي تنحدر منها نفزاوة وهي قبيلة طارق ابن زياد فاتح الأندلس، وأكثر البتر من الرعاة سكان الصحراء، وإن كان بعضهم كالتلمسان يعيشون عيشة استقرار وحضارة، وترجع تسميتهم البتر إلى ارتدائهم

رداء يشبه البرنس بدون غطاء للرأس فأطلق عليهم العرب هذا الاسم دلالة على أنهم يرتدون رداء مبتورًا؛ أي ناقصًا.

وبعض البربر يعملون في الزراعة وذلك في المناطق الخصبة والواحات، وأهم غلالهم التمر والزيتون والكروم، وبعضهم يعمل في استخراج الملح الصخري من مناجمه الصحراوية والتجارة به بين الشمال والجنوب، أما النشاط الرئيسي لهم فهو الرعي، وهم ينقسمون في ذلك إلى رعاة الشاة أو «الرعاة الصغار» ـ ويُطلق عليهم في الجزائر حتى اليوم «الشاوية» ـ ورعاة الإبل أو «الجمالة الكبار» وأماكن تركزهم على حافة الصحراء حيث يندر الماء والطعام، وهم البدو الرحل بكل معنى الكلمة الذين يجوبون البلاد طولًا وعرضًا يقودون قطعانهم من الإبل بحثًا عن الماء والعشب وينقلون في تجوالهم هذا الثقافة والحضارة بين الشعوب، كما أنهم يتميزون بقوة الأجساد والجلد على الشدائد والأنفة والكبرياء إضافة إلى مجموعة أخرى من الخصائص التي تميز الجمالة الكبار والتي سيكون لها تأثيرها على الأحداث كما سنرى.



٢ ـ بربري معاصر يرتدي البرنس والعمامة.

الرجل الحر النبيل

هذا هو المعنى الدقيق لكلمة أمازيجي ـ أو كما ينطقها ويكتبها المغاربة «أمازيغي» وهو اسم آخر للبربر له جذور فينيقية حيث أُطلقت لفظة «مازيس» على الشعوب القوية التي تمردت على الإمبراطورية الرومانية، ومن هذا الأصل أتت كلمة الأمازيغية وهي اللغة التي يتحدثها البربر.

ويعد هذا التوق للحرية ورفض الخضوع والجنوح نحو الثورة والتمرد أهم وأبرز خصائص الشخصية البربرية وهو ما جعلهم بمثابة حائط صد منيع أمام كل محاولات إخضاع المنطقة لحكم خارجي فينيقي أو إغريقي أو فارسي أو روماني أو بيزنطي، وقد كان حريًا به ـ على النهج ذاته أو من باب أولى ـ أن يصد عن المغرب الكبير جحافل الفتح العربي الإسلامي وهو ما حدث بالفعل في بداية الأمر.

فحتى دخول الإسلام إلى المغرب ظلت الغالبية العظمى من البربر تدين بديانات مجوسية ووثنية، إذ كان بعضهم يعبد الشمس والقمر والبعض الآخر يتخذ أصنامًا يقربون لها القرابين كما أنهم مارسوا أعمال السحر والشعوذة على نطاق واسع ولهم فيها مهارة متفردة، وهو الأمر الذي لا يزال موجودًا مع الأسف حتى اليوم خاصة في الجبال النائية.

أما بالنسبة للديانات السماوية فقد اعتنق بعضهم اليهودية التي وفدت مع المهاجرين اليهود زمن الاضطهاد الروماني لهم، إلا أن المسيحية كانت أكثر انتشارًا منذ وقت مبكر، وقد دخلت إلى المغرب عن طريق مصر وذلك خلال عصور الاضطهاد المسيحي من

الرومان الوثنيين (عصر الشهداء الأول) ثم من الرومان الكاثوليك (عصر الشهداء الثاني) ففر المتمسكون بمسيحيتهم الأصيلة من المصريين صوب المغرب وهناك نشروا مبادئ التوحيد والمحبة بين أهل البلاد من البربر، إلا أن المذهب الآريوسي الأصيل والصافي لم يستقر كثيرًا أمام التيارات الكاثوليكية القادمة مع الرومان الذين غزوا البلاد ونكّلوا بالمسيحيين الآريوسيين في المغرب وحرقوا أناجيلهم وكنائسهم مثلما فعلوا بهم في مصر، وهو ما ترتب عليه حدوث خلافات عديدة حول طبيعة المسيح أتبعها انقسام في الكنيسة الإفريقية وظهور مذاهب شتى حتى أنه عندما وصلت جيوش الفتح الإسلامي إلى بلاد المغرب وجدت بها أكثر من مائتي أسقفية تتصارع فيما بينها وسط ذلك الطوفان من الملاحدة الوثنيين.

وبينما استسلمت ممالك ضخمة ذات حضارات عريقة وجيوش منيعة بسهولة أمام الفتح الإسلامي حتى استطاع المسلمون خلال عشرين عامًا فقط أن يُخضعوا فارس كلها وبلاد الشام ومصر وأن يُنشئوا فيها أنظمة حكم مستقرة، فإنهم ذاقوا الأمرَّين في جهادهم لفتح بلاد المغرب واحتاج الأمر لأكثر من سبعين عامًا لكي يدخل البربر في دين الله ولكي تستقر للإسلام دولة في المغرب الكبير وذلك بسبب الطبيعة العصية على الاحتواء والانضواء التي يتميز بها الشعب البربري.

ذلك أن الخطأ الأكبر الذي ارتكبه الفاتحون الأولون للمغرب هو تعاملهم مع البربر على أنهم عرب فاتحون، وربما كان ذلك راجعًا لبعض التيه الذي يراود المنتصر مع تداخل رواسب جاهلية متبقية في النفوس تعلي من شأن الانتماءات العرقية والقبلية، وهنا تجري سنة الله سبحانه وتعالى التي لا تتبدل ولا تحابي أحدًا من البشر ولو كان نبي الله معهم ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾[1] فلم ينتصر المسلمون يومًا ـ ولن ينتصروا ـ بكثرة عدد ولا بقوة سلاح ولا بمنعة حصون ولا بفضل انتماء إلى عدنان أو قحطان ولكن انتصارهم يكون ـ فقط ـ بالله حين تكون غايتهم ـ فقط ـ هي الله وجهادهم ـ فقط ـ في سبيل الله، لذا فإنهم حين تعاملوا مع البربر على أنهم عرب انتفض الأمازيغي الحر

(١) سورة التوبة، آية ٢٥.

النبيل ليصدهم وليلحق بهم الهزائم المنكرة، وما زالت بلاد المغرب تعاني حتى يومنا هذا من الثورات البربرية والحركات الانفصالية الأمازيغية التي تقف السلطات حيالها مكتوفة الأيدي تحاول حلها إما بالقهر أو بمسكنات مؤقتة لا يلبث مفعولها أن ينتهي لتتأجج الثورة من جديد.

أما القائد العظيم موسى بن نصير الذي ولّاه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك على إفريقيا عام ٨٦ هـ الموافق ٧٠٥ م فقد أدرك أن إخماد ثورة البربر واستقرار المغرب الكبير لن يتحقق بغير تعليمهم قواعد الإسلام وبغير التطبيق الدقيق والواعي لمبادئ المؤاخاة الإسلامية التي وضع رسول الله ﷺ ركيزتها الأولى في دولة المدينة والتي تجعل التقوى هي الفيصل في تفاضل الأشخاص دون نظر لانتماءاتهم العرقية، وهكذا أكمل موسى بن نصير ما بدأه عقبة بن نافع من نشر الإسلام في ربوع المغرب بينما تجلت حنكته السياسية المستندة إلى ركيزة إسلامية متينة في تولية القائد البربري طارق بن زياد على طنجة وجعله أميرًا على الجيش الإسلامي في المغرب الأقصى.

كان طارق بن زياد قائدًا حربيًا عظيمًا ومسلمًا وَرِعًا تقيًا ينتمي إلى قبيلة نفزاوة إحدى قبائل البتر ومحلها في جنوب تونس الآن، وكان قوي البنية طويلًا أبيض البشرة أشقر الشعر أزرق العينين ـ على العكس تمامًا مما يبدو في الدراما التاريخية ـ وقد أثبت الواقع حسن اختيار موسى بن نصير له فانطلق فاتحًا مدينة سبتة المنيعة ليعبر منها إلى الأندلس.

وهنا يثور السؤال عن الأسباب التي حملت الفاتحين على الاتجاه شمالًا إلى الأندلس بدلًا من الاتجاه جنوبًا في اليابسة حيث كان عليهم أن يخوضوا البحر وهو أمر مخيف بالنسبة لسكان الصحراء، وعن أهمية الأندلس بالنسبة للدولة الإسلامية حتى تتجه إلى فتحها وما كادت توطد دعائم استقرارها في المغرب، وهل كانت الأندلس وقتها بلاد العلم والحضارة والتمدن والقصور السامقة والحدائق الوارفة والمدن الحاضنة لكل تلك الصور الرائعة التي تتداعي إلى أذهاننا اليوم بمجرد أن نسمع بهذا الاسم؟!

بلاد الهمج

في القرن الخامس الميلادي اجتاحت أوروبا قادمة من الشمال الإسكندنافي قبائل بدائية همجية أُطلق عليها قبائل الفاندال (Vandals) نسبة إلى مدينة «فاندل» السويدية أو إلى مدينة «فاندسيسل» الدنماركية، فاستباحت كل شيء وأخذت تقتل وتحرق وتسرق وتدمر الآثار الحضارية والثقافية للإمبراطورية الرومانية، وكان من أبرز ما استولوا عليه وأتلفوه الغنائم والكنوز النادرة لهيكل سليمان التي جلبها الأباطرة من أورشليم إلى روما، ثم انساحوا في البلاد ينشرون في طريقهم الرعب والخراب حتى عبروا جبال البيرنيه متجهين جنوبًا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية فقاتلوا سكانها الأصليين وقتلوا ملكهم وأسسوا بها مملكة سُميت «فاندالسيا»؛ أي بلاد الفاندال، ولما كان العرب ينطقون حرف «V» اللاتيني «و» بالعربية فقد حرفوا الاسم إلى «واندالسيا»؛ أي بلاد الوندال، ثم تطورت إلى «الأندلس» بالعربية، أو أندلوسيا (Andalusia) **باللغات الأوروبية، وهو الاسم الذي ما زال يُطلق** حتى اليوم على منطقة جنوب إسبانيا.

ومما يستوقفنا هنا أن اللفظة المنسوبة إلى السكان الأصليين للشعوب الإسكندنافية ما زالت تشير في اللغات الأوروبية الحديثة إلى الهمجية أو التخريب بلا مبرر، فهي بالإنجليزية «Vandalism»، وبالفرنسية «Vandalisme»، وبالإسبانية والإيطالية «Vandalismo»، أما الهمج المخربون فيطلق عليهم «Vandals»، ولعل هذا يفيدنا في التعرف على حقيقة تلك النوعية من حرية التعبير وحرية الاعتقاد التي يتمسكون بها الآن في الشمال الأوروبي ولو كانت على حساب مشاعر الآخرين ومقدساتهم، فاحترام

الآخر لا يتأتى بغير تراكم حضاري لشعوب ولمجتمعات عرفت الاستقرار منذ قديم الأزل وخضعت لأنظمة تضع حدودًا فاصلة ما بين حرية الفرد واستقرار الجماعة.

وها نحن نعود إلى سياقنا، فدعونا نشير اختصارًا إلى الأجواء الأوروبية في عصر استقرار الدولة الإسلامية في المغرب وبداية التفكير في فتح الأندلس:

فأما في الشمال حيث فنلندا والدول الإسكندنافية[1] - الدنمارك والسويد والنرويج - فشعوب همجية لا تعرف حضارة ولا دينًا ولا حتى لغة فبعضها يتحدث بلغة جرمانية والغالبية تتفاهم بالإشارة أو بإصدار أصوات أو كلمات تنطق ولا تكتب وهو ما جعل المبشرين المسيحيين يتوقفون خوفًا وازدراء عند حدود تلك المنطقة التي لم تدخل في المسيحية إلا بعد قرون طويلة من اعتناق أوروبا لها وذلك إبان الحروب الصليبية مع الشرق الإسلامي حيث تم الاستعانة بهم في البداية كجنود مرتزقة ثم رأى البابا دعوتهم للمسيحية ليكونوا أكثر إخلاصًا للكنيسة في حربها «المقدسة» وأقل نفقة أيضًا!

وأما في شرق أوروبا فالإمبراطورية الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية التي وعد رسول الله المسلمين أن تُفتح لهم وقال ﷺ: «لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»[2] وقد كانت من المنعة ما جعل جيوش المسلمين تعجز عنها طويلًا بدءًا من المحاولة الأولى عام ٤٤ هـ في عهد معاوية بن أبي سفيان حتى دخلها السلطان العثماني محمد الفاتح بعد ثمانية قرون كاملة وذلك في عام ٨٥٧ هـ الموافق ١٤٥٣م، وما فتحها إلا يقين المؤمنين الراسخ بتحقق وعد الله سبحانه وتعالى لهم.

بينما نجد في الغرب الإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما وهي تعيش في ظلمات العصور الوسطى حيث الجهل والشعوذة ومحاربة العلم والعقل والتقاتل على السلطة والمال بين رجال الكنيسة والملوك وأمراء الإقطاع بينما ترزح الشعوب المغلوبة

---

(١) يتكون الشعب الفنلندي من أصول إثنية ولغوية مختلفة تمامًا عن الشعوب الإسكندنافية؛ لذا فإن اعتبار فنلندا من الدول الإسكندنافية يرجع لاعتبارات سياسية فرضت ذلك في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، والحاكم في المستدرك، عن بشر الغنوي، وصححه السيوطي في الجامع الصغير.

على أمرها تحت نير استبداد مطلق يمارس عليهم باسم الرب، وفقر مدقع، وخرافات تلبس مسوح الدين وحروب هم ـ فقط ـ وقودها بينما ينعم بغنائمها الكهنة والملوك.

نحن الآن عند نهايات القرن الأول الهجري وتحديدًا عام ٩٢ هـ وبدايات القرن الثامن الميلادي عام ٧١١ م وقد خضعت شبه الجزيرة الأيبيرية «الأندلس» ـ إسبانيا والبرتغال الآن ـ تمامًا لحكم القوط بعد أن وحد «ثيودريك العظيم» القوط الشرقيين والغربيين في مملكة واحدة وتحالف مع الفاندال بعد أن تزوج إحدى بناتهم، وقد أثر هذا التحالف في الأخيرين فجعلهم أكثر تحضرًا كما تسبب في تعرفهم على الديانة المسيحية على العكس من أصولهم في الشمال، وبعيدًا عن التفاصيل التاريخية الكثيرة نكتفي بالإشارة إلى أن الفاندال (أو الوندال كما سماهم العرب) اعتنقوا المذهب الآرياني المخالف للمذهب الكاثوليكي مذهب الإمبراطورية الرومانية، وكذا فعل ملوك القوط الذين أقاموا مملكة لهم في الأندلس استمرت حتى الفتح الإسلامي، وقد ساد المذهب الآرياني في شبه الجزيرة الأيبيرية زمنًا طويلًا حتى تفاقم اضطهاد الكاثوليك للإريانيين بعدما اعتزمت الكنيسة الكاثوليكية القضاء التام على هذا المذهب فكانت الهجمات الإرهابية والمجازر الوحشية على غرار تلك التي حدثت من قبل في مصر وشمال إفريقيا مما ترتب عليه تحول ملوك القوط بعد وفاة «ليوفيجيلد» آخر ملك قوطي إرياني إلى الكاثوليكية بينما أخفى الشعب تمسكه بمذهبه الأصلي وظل الخوف والحسرة في النفوس نحو قرن من الزمان وذلك في انتظار الـمُخلّص.

ومما يستوقف النظر هنا ويؤسف له في الوقت ذاته أن أكثر المعاصرين من المؤرخين العرب يتجاهلون تمامًا ـ ربما اتباعًا منهم لمنهج المؤرخين الغربيين ـ حقيقة العقيدة الدينية التي كان قوط الأندلس يعتنقونها قبل الفتح الإسلامي، وهو ما يفعلونه أيضًا بالنسبة لقبط مصر مكتفين بأن يطلقوا على الجميع لفظة «نصارى» المجملة دون تفصيل، رغم أن الوقوف على الحالة الدينية للشعوب الأصلية للممالك المفتوحة يفيدنا كثيرًا في معرفة الوجه الحقيقي لسياسة الفتح الإسلامي خاصة في البلاد التي كانت تعتنق المسيحية، لذا فإني أستمحيكم عذرًا في إيقاف تسلسل الأحداث مؤقتًا بينما طارق بن زياد يأخذ أُهبته للعبور إلى الأندلس؛ وذلك لنعود بالزمن إلى الوراء إلى ما قبل البعثة المحمدية بقرون وبالمكان إلى مصر القديمة.

الأقباط الموحّدون

بعد أن نجّى الله سبحانه وتعالى عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم من كيد اليهود ورفعه إليه انطلق حواريوه في البلاد يبشرون بالملكوت وينشرون دين الحق الذي جاء به المسيح كما جاءت به رسل الله أجمعين ويخرجون الناس من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور التوحيد الخالص لرب واحد خالق الكون والملكوت بلا شريك له في الخلق أو الأمر.

ولقد كانت لمصر مكانة هامة في المسيحية فإليها فرت العائلة المقدسة المكونة من مريم العذراء وطفلها الرضيع يسوع ويوسف النجار هربًا من هيرودس ملك اليهود الذي أراد قتله حين أخبره مجوس المشرق القادمون إلى أورشليم أنهم رأوا نجم صبي وُلد فيها وأنه سوف يصبح ملكًا لليهود، وقد حملت تلك الرحلة الميمونة البركة إلى أرض مصر فبعد ذلك بسنوات وبعد رفع المسيح عليه السلام وصلها واحد من السابقين الأولين من المؤمنين برسالة المسيح وأحد حوارييه المخلصين هو يوحنا مرقس الذي أسس أول كنيسة بالإسكندرية عام ٦٢ م وراح يدعو الناس إلى عبادة الله الواحد لا شريك له فتآمر عليه الوثنيون وقيدوه وعذبوه حتى قضى شهيدًا.

واستمر الشرك والإيمان يتصارعان على أرض مصر التي كانت في ذلك الوقت خاضعة للإمبراطورية الرومانية الوثنية وكلما ازداد انتشار المسيحية بين القبط ـ اسم يُطلق منذ القدم على سكان مصر ـ كلما ازداد حقد قياصرة الرومان وولاتهم فأخذوا يضطهدون المؤمنين ويسومونهم سوء العذاب، لكن قسوة الاضطهاد وبشاعة التعذيب واستشهاد ألوف المؤمنين والتمثيل بجثثهم ما زادهم إلا إيمانًا وتمسكًا بدينهم، وصدق

رسول الله ﷺ إذ يقول: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه»[1]، وتلك سنة الله النافذة في خلقه التي لا تتغير ولا تتبدل وليميز الله الخبيث من الطيب، فاستمر الاضطهاد نحو قرنين ونصف من الزمان تضاعف خلالها انتشار المسيحية وعرفت البلاد العديد من الشهداء الذين أصبحوا رموزا يهتدى بهم حيث تحولوا إلى أمثلة للتضحية في سبيل العقيدة تحث الآخرين على التقدم للسير على نهجهم، ومن أبرز شهداء تلك الفترة القديسة كاترين «سانت كاترين» والقديس تادرس والبابا بطرس وغيرهم، وقد بلغت بشاعة القتل أن كانت جثث الشهداء يُمثل بها ثم تُحمل على عربات وتُلقى أكوامًا متراكمة في نهر النيل.

وكان من نتائج ذلك الاضطهاد الذي فاق كل وصف أن لجأ مسيحيو مصر الأوائل؛ الأقباط الموحدون، إلى الصحراء هربًا من نير القهر والتعذيب فأقاموا كهوفًا ومغارات يتعبدون فيها ويتبتلون إلى الله لينجوا بأرواحهم من شرور الحياة فكانت تلك هي اللبنة الأولى لنظام الرهبنة في المسيحية، وعرفت سيناء والصحراء الغربية نمطًا بدائيًا من أديرة الرهبان كانت السبب المباشر في دخول بعض بربر شمال إفريقيا في المسيحية.

وقد أُطلق على تلك الفترة المبكرة من التاريخ القبطي اسم «عصر الشهداء الأول» تمييزًا له عن «عصر الشهداء الثاني» الذي سيعرفه المصريون بعد فترة قصيرة اطمأنوا فيها واستراحوا وتمتعوا بممارسة شعائرهم في جو من التسامح الديني بعد أن أصدر الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول في عام ٣١٣م قانونًا أُطلق عليه «مرسوم ميلانو» نص فيه على إلغاء جميع العقوبات التي فرضها الأباطرة السابقون على من يعتنق المسيحية في ربوع الإمبراطورية، وفي هذا السياق قام الإمبراطور بنقل عاصمة إمبراطوريته من روما حيث معقل الوثنية في غرب أوروبا إلى مدينة في الشرق ـ حيث يكثر انتشار المسيحيين ـ سماها روما الجديدة ثم أُطلق عليها بعد وفاته «القسطنطينية» تيمنًا باسمه لتعتبر أول مدينة مسيحية في العالم تضم بيوت الله ويُمنع فيها بناء المعابد الوثنية تمامًا

---

(١) رواه البخاري عن خباب بن الأرت.

منذ ذلك التاريخ، وقد حلت بها البركة بذاك التكريم حتى أصبحت بعد قرون طويلة «إستامبول» عاصمة الخلافة الإسلامية وإحدى منارات التوحيد التي تستقطب مشاعر المؤمنين في كل مكان.

إلا أن الأقباط ما كادوا يركنون إلى الراحة وينعمون بالتسامح حتى ابتلوا بعاصفة جديدة بدأت بواكيرها أثناء حكم قسطنطين ذاته، فتحمسًا من الإمبراطور للديانة المسيحية التي اعتنقها أراد لها أن تنتشر في ربوع الإمبراطورية الرومانية فوقف له الوثنيون بالمرصاد، وكانت لرجال الدين في المعابد الوثنية مكانة هائلة في نفوس الناس وقوة روحية لم يتمكن الإمبراطور من ردعها أو الانتقاص منها فلجأ إلى مداهنتهم وعاونه بعض رجال الدين المسيحي الذين استندوا إلى ما جاء في الأثر وبالأخص ما ذكره بولس الرسول[1]: «استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع أني لست بلا ناموس.. وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل»، ومن هنا بدأ رجال الدين المسيحيون يداهنون الوثنيين ليغروهم بالدخول في الدين الجديد وقد كانت آلهة الرومان الوثنية ثلاثة ـ خلافًا للتعدد الواسع في الآلهة الموجود عند اليونان ـ وفي الوثنية الفرعونية التي كان كثير من القبط ما زالوا متمسكين بها كان الثالوث الإلهي الفرعوني: أوسيري، وهور، وإيس، ومن هنا وهناك تولدت فلسفة الأقانيم الثلاثة للإله الواحد (الآب والابن والروح القدس) التي يسرت تخلي الوثنيين عن عقائدهم السابقة التي تمسكوا بها لقرون طويلة ودخولهم في المسيحية، وعلى هذه الفلسفة كان تأسيس الكنيسة الكاثوليكية في الغرب.

إلا أن أقباط مصر المؤمنين الذين تحملوا الاضطهاد والتعذيب والقتل والتشريد طوال قرنين ونصف من الزمان من أجل عقيدة التوحيد الخالص التي بشَّر بها المسيح ودعاهم إليها مرقس البشير «مار مرقس» رفضوا هذا الخلط بينها وبين العقائد الوثنية القديمة فكان ذلك الرفض نقطة مفصلية في التاريخ المسيحي عامة وفي تاريخ مصر خاصة.

---

(١) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، سفر ٩.

القابضون على الجمر

رفض الأقباط الموحِّدون محاولات بعض رجال الدين مداهنة الوثنيين لإغرائهم بالدخول في المسيحية استجابة لرغبة الإمبراطور قسطنطين الذي أراد نشر الديانة الجديدة في ربوع الإمبراطورية الرومانية الوثنية، فتصدوا بقوة لمحاولات الخلط بين عقيدة التوحيد التي جاء بها المسيح عليه السلام وأنبياء الله من قبله وبين العقائد الوثنية المتأصلة في نفوس الرومان والمصريين القدماء، وقد تزعم تلك المقاومة قس مسيحي بكنيسة الإسكندرية يُدعى «آريوس».

والمفارقة أن آريوس هذا كان شابًّا من بربر القيروان الذين اعتنقوا المسيحية على يد رهبان مصر ثم وفد إلى الإسكندرية حيث تلقى العلم في مدرستها اللاهوتية، وكان تقيًا صالحًا ذكيًا فصيحًا فرسمه البابا بطرس شماسًا ثم قسًا وواعظًا بالكنيسة، فلما بدأت محاولة خلط التوحيد المسيحي بفكرة التثليث وامتدت من روما إلى مصر تصدى لها بحسم، وقد كان له من التقوى والورع والعلم ما يضاف إلى طبيعته البربرية الأبية العصية على الاحتواء والخضوع ما ساعده على الوقوف بقوة وصلابة أمام كل محاولة لتبديل العقيدة، وقد وقف الشعب القبطي المؤمن وراءه واختاره بطريركًا للكنيسة إلا أن بعض رجال الدين قاموا بتنصيب ألكسندروس بطريركًا ثم أوعزوا إلى الإمبراطور بأن آريوس خرج عن طاعته وطالبوا بتجريده من الكهنوت فما كان من قسطنطين الأول إلا أن دعا كافة رجال الدين في الإمبراطورية إلى الاجتماع في مدينة تقع بمنطقة الأناضول تسمى «نيقية» وذلك في عام ٣٢٥م لمناقشة الأمر، ويعد مجمع نيقية أو المجمع المسكوني الأول علامة فاصلة في التاريخ المسيحي بأكمله حيث تغلبت فيه المصالح

السياسية المتمثلة في رغبة الإمبراطور في حماية وحدة الإمبراطورية ومداهنته بالتالي للرافضين للإيمان المسيحي وحرص رجال الدين على المحافظة على سلطانهم ومكانتهم وخشيتهم من العودة إلى معاناة عصور الاضطهاد، تغلب ذلك كله على عقيدة التوحيد الخالصة التي نزل بها المسيح ابن مريم فانتهى مجمع نيقية إلى الحكم على آريوس بالهرطقة وحرمانه ونفيه من مصر وحرق كتبه وإعدام من يتستر على هذه الكتب، كما تم وضع قانون جديد للإيمان المسيحي يطبق على جميع الكنائس في الشرق والغرب ونص على أن: «يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل فَلاَحِنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصُلب عنا».

وما زالت أصداء صوت آريوس تتردد في جنبات مجمع نيقية وهو يحاجج مخالفيه بآيات بينات من الإنجيل حيث يقول المسيح عن معجزاته: «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني»[1]، كما يجيب تلاميذه عن سؤالهم عن ساعة الدينونة: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفهما أحد ولا ملائكة السموات إلا الآب وحده»[2]، ويناجي ربه في صلاته قائلًا: «أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»[3]، ويؤكد أن ما ينطق به ليس إلا رسالة أرسله بها الله إليهم: «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني»[4]، وكثير سواها من الآيات التي استند إليها آريوس ليقرر وحدانية الرب تقدست أسماؤه وأن المسيح عليه السلام هو عبده ورسوله.

غير أن صيحاته ضاعت هباء أمام سطوة المصالح السياسية والأطماع الدنيوية فتم نفيه من مصر ثم تآمر المتآمرون لقتله، إلا أن أتباعه من القبط المؤمنين ظلوا على تمسكهم بعقيدتهم قابضين على جمار الحق لا يضرهم من خذلهم ولا يثنيهم عن طريقهم

---

(١) يوحنا ٥: ٣٠.

(٢) متى ٢٤: ٣٦.

(٣) يوحنا ١٧: ٣.

(٤) يوحنا ١٤: ٢٤.

القويم من حاد عنه، وهكذا بدأ في مصر «عصر الشهداء الثاني» وكان على غرار العصر الأول بل أشد بأسًا إذ أوقف إثناسيوس بطريرك الإسكندرية المعين من قِبل أباطرة الروم والذي كان رئيسًا للشمامسة في مجمع نيقية ما تبقى من حياته لاضطهاد المقرين بالوحدانية وتعذيبهم وتقتيلهم، ففر منهم من فر إلى الشرق والغرب فازداد انتشار الفكر الآريوسي أو ما أطلق عليه المذهب الآرياني سواء في مصر أو خارجها، وكان ممن آمن بهذا الفكر مسيحيو شمال إفريقيا وقوط الأندلس إضافة لأتباع مارمرقس من أقباط مصر المسيحيين.

وفي عام ٤٢٨م تمكنت الكنيسة الكاثوليكية من استصدار قرار إمبراطوري يقضي باستئصال المذهب الآرياني من كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية بكل الوسائل، فبدأت حملات القتل والترويع وحرق الأناجيل وكتب العلم وتهديم الكنائس والتمثيل بالجثث وغيرها من الممارسات الدموية الشهيرة للكنيسة الغربية التي تذكرنا بمحاكم التفتيش التي ستعقدها هذه الكنيسة ذاتها بعد قرون لأهل الأندلس المسلمين عقب سقوطها والتي ما زال اسمها ماثلًا في صفحات التاريخ كرمز حي على ما تحويه النفس البشرية إن ضلت الطريق على قسوة وظلم وحقد ودموية لا مثيل لها عند أشد الوحوش شراسة.

ويبقى أقباط مصر المؤمنون وقوط الأندلس وغيرهم من الموحدين رغم العذاب والاضطهاد قابضين بقوة وبإصرار على زمام قافلة التوحيد الماضية في طريقها عبر الزمان في انتظار «المعزي» الذي بشَّر المسيحُ تلاميذه بأن الله سيرسله ليُعلم الناس كل شيء «ويذكركم بكل ما قلته لكم»، ويهبط الوحي على محمد كما هبط من قبل على عيسى، ويلاقي محمد وأصحابه ما لاقاه عيسى وأصحابه من عنت وتكذيب، ويتنزل القرآن الكريم يخبر نبيه بالحق عن عباده الموحدين ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1]، إنهم أتباع

(١) سورة المائدة، آية ٨٢، ٨٣.

المسيح، أصحاب آريس وغيره من قسيسي التوحيد ورهبانه، القبط المؤمنون والأريان المضطهدون في كل مكان.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بأمر هؤلاء الموحدين المتمسكين بدينهم الحق لذا ذكرهم ﷺ في رسالته التي أرسلها إلى هرقل إمبراطور الروم وهو ما لم يتنبه له المؤرخون والمفسرون المسلمون رغم أن تلك الرسالة ما زالت محفوظة حتى اليوم بمتحف طوب كابي بإستنبول وممهورة بالخاتم النبوي الشريف، فماذا تضمنت الرسالة النبوية بشأن الأريسيين؟

وأشرقت الأنوار

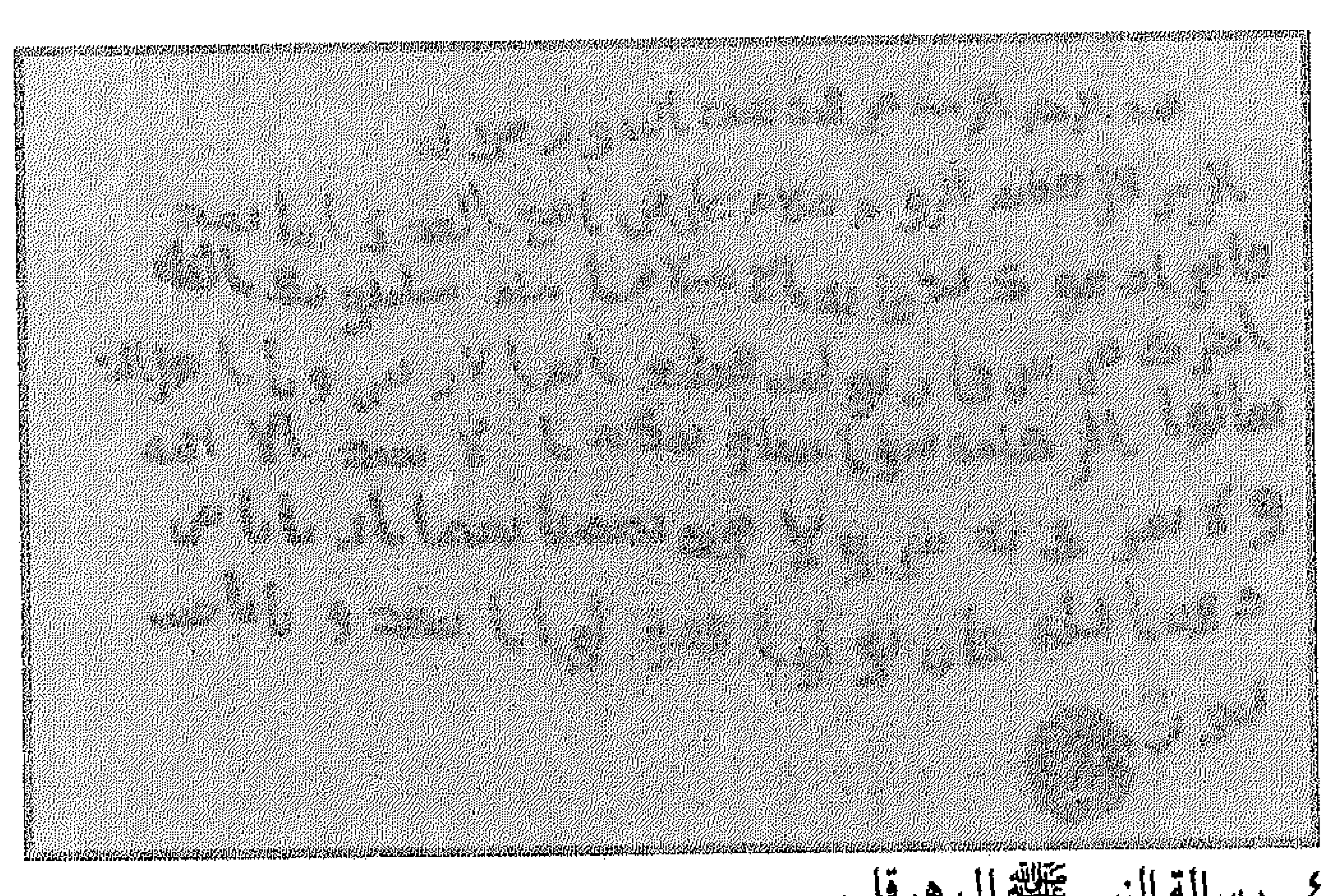
في نهاية العام السادس للهجرة الموافق ٦٢٧ لميلاد السيد المسيح وعقب عودة رسول الله ﷺ من الحديبية أرسل رسله إلى ملوك الأرض وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام، وقد تضمنت رسالته إلى إمبراطور الروم ما يلي: «من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم جميع الأريسيين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1].

والطريف أن المتأخرين من المفسرين وقفوا عاجزين أمام كلمة «أريسيين» التي وردت في الرسالة لعدم معرفتهم بالمذاهب المسيحية ففسرها البعض بالخدم والضعفاء، والبعض بالزراع والأجراء، واكتفى آخرون بأن ذكروا في تفاسيرهم بأن الأريسيين هم أتباع هرقل! أما رسول الله فقد كان يعلم بما علمه ربه أن الأريسيين هم أتباع آريوس الذين ظلوا قابضين على جمار الحق في انتظار بعثته ﷺ، وما كاد فجر يوم ١٨ ربيع الآخر عام ٢٠ هـ الموافق ١٦ إبريل عام ٦٤١ م يشرق على أرض مصر حتى كان الصحابي الجليل عمرو بن العاص قد نجح في إسقاط النظام السياسي التابع للإمبراطورية الرومانية، والذي كان يضطهد أقباط مصر ويسومهم سوء العذاب، وهكذا دخل كثير من القبط في دين الله تصديقًا بما بشرهم به المسيح عليه السلام ليبدأ على أرض الكنانة عهد جديد ينتهي فيه اضطهاد الروم وأتباعهم وينعم أهلها جميعًا بتسامح ديني ليس له مثيل.

---

(١) سورة آل عمران، آية ٦٤.

ونتيجة للاضطهاد الكاثوليكي للآريانية في أوروبا فقد كاد المذهب أن يندثر إلا من شبه الجزيرة الأيبيرية «الأندلس»، وكما أسلفنا فقد تحول ملوك القوط بعد ليوفيجيلد إلى الكاثوليكية دين الإمبراطورية الرومانية طمعًا في استرضاء الأباطرة ليبقوهم على عروشهم، بينما تمسك عامة القوط الأندلسيين ـ كقبط مصر ـ بعقيدتهم وتحملوا في سبيل ذلك العنت والاضطهاد من حكامهم فضلًا عما كانت تعانيه الشعوب الأوروبية عامة خلال تلك الفترة من فقر وحرمان وقهر تحت سلطان حكام جائرين، ولعل هذا الكشف عن حقيقة العقيدة الدينية لقوط الأندلس يفسر لنا السبب الحقيقي الذي دفع الفاتحين المسلمين للإبحار نحوها بدلًا من الاتجاه جنوبًا في اليابسة لنشر الإسلام بين قبائل السودان، وعندما نذكر السودان هنا فإننا لا نعني بالطبع ذلك الواقع جنوب مصر والذي كان قد فُتح بالفعل قبل سنوات طويلة، وإنما نعني الدول الإفريقية الواقعة جنوب المغرب الكبير كالسنغال والنيجر ومالي وغيرها.



٤ ـ رسالة النبي ﷺ إلى هرقل.

فعندما وصل الفاتحون المسلمون إلى المغرب قبل أكثر من سبعين عامًا أثار عجبهم ذلك القدر الهائل من الذهب الذي وجدوه بحوزة البربر، وعندما سألوهم: «من أين لكم هذا؟» أجابوا بأن قدموا لهم الملح الذي يستخرجونه من مناجم الصحراء قائلين: «هذا بذاك»، فلقد كان البربر في تجوالهم شمالًا وجنوبًا يتاجرون مع السودان الذي يتوافر فيه تبر الذهب بلا حساب حتى ليوجد في متناول الجميع كما تكثر فيه مناجم الياقوت الجيد فكانوا يبيعونهم الملح الصخري مقابل تلك المعادن الثمينة ومقابل

الذهب الأسود لذلك العصر وهم الزنوج الذين كانوا يمثلون عصب القوى العاملة في العالم القديم شرقه وغربه، وقد كان البربر يستخدمونهم في استخراج ملح المناجم ويبيعونهم للأوروبيين الوافدين إلى مدن المغرب التي حوت آنذاك أكبر الأسواق العالمية لبيع العبيد.

عرف المسلمون إذًا ومنذ البداية ما يحويه السودان من ثروات وفيرة تسيطر عليها قلة من قبائل وثنية بدائية تجمعهم بالبربر علاقات قديمة سلمية وحربية، وفضلًا عن ذلك فإن المسير إلى الجنوب عبر اليابسة هو بلا شك أيسر على جنود الجيش الإسلامي ـ سواء من العرب أو البربر ـ من خوض البحر الذي يمثل لقبائل الصحراء هاجسًا مخيفًا مما جعل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك يتردد في الموافقة على طلب موسى بن نصير بالإذن له في فتح الأندلس قائلًا: «لا تُغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال»، لكن ابن نصير تمكن من إقناعه بمحدودية المساحة البحرية بين المغرب والأندلس.

وسأكتفي في الإجابة على تساؤلات منطقية حول أسباب أولوية الأندلس (بلاد الهمج وما وراء البحار) عن سودان الصحراء المغربية (بلاد الذهب والعبيد وامتداد اليابسة) في سياسة الفتح الإسلامي رغم سهولة الأخيرة وإغرائها بالمقارنة بالأولى بإجابة الصحابي ربعي بن عامر حين أرسله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما إلى رستم قائد الفرس للتفاوض معه قبل معركة القادسية، إذ سأله الأخير مستهزئًا به ومحتقرًا لبداوته: «ما الذي جاء بكم إلى هنا؟»، فأجابه السفير المسلم بثقة راسخة: «لقد ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة». فليست الدنيا هي هدف الفتح الإسلامي، لكنه شيء آخر لا يدركه إلا من جاوزت تطلعاتهم ما فوق طين الأرض.

وهكذا شاء رب العباد سبحانه أن تشرق أنوار التوحيد على قوط الأندلس كما أشرقت قبل أكثر من نصف قرن على قبط مصر لتخرجهم من ظلمات جور طويل، وفي شهر رمضان المبارك من عام ٩٢هـ كانت معركة وادي لكة بين الفئة القليلة المؤمنة من جيش طارق بن زياد وبين الكثرة الضالة المضطهدة من جيش الديكتاتور رودريكو، وهنا نجد أنفسنا في حاجة إلى وقفة مع تعبير «الفتح العربي للأندلس» الذي يستخدمه المؤرخون، والذي يعد بحق افتئاتًا منهم على الحق.

الفتح الإسلامي

يعرّف خبراء العلاقات الدولية المعاصرون الحرب بأنها حالة صراع مسلح بين دولتين أو أكثر، وأنها ظاهرة مستمرة وضرورية ولازمة في تاريخ البشرية، لذا فإنها تتطور وتنمو معها ليس فقط من ناحية تكنولوچيا الأسلحة وإنما أيضًا من ناحية البواعث والفلسفات التي تدفع إلى التقاتل بين بني البشر، ومن ناحية الضوابط القانونية التي تحكم العلاقات بين المتحاربين وبينهم وبين المحايدين بما في ذلك معاملة الأسرى وغيرها من الأحكام التي تنظمها المعاهدات الدولية التي بلغت ذروة رقيها في القرن العشرين بإبرام المعاهدات الرئيسية الحاكمة لأوضاع الحرب وأهمها مجموعة اتفاقيات لاهاي بخصوص الحرب ومجموعة اتفاقيات جنيف لمعاملة أسرى الحروب وحماية المدنيين وغيرها.

غير أن دينًا قام على العدل والرحمة وعلى المساواة بين بني البشر جميعًا أسس قبل هذه المعاهدات بقرون طويلة نظامًا تشرئب إليه أعناق الباحثين المنصفين فلا تطاوله فيكتفون بكلمات معبرة عن انبهار حقيقي بتلك الذرى الشامخة التي وصلتها أحكام الحرب في الإسلام في وقت كانت الدول تهاجم بعضها بعضًا للاستيلاء على ثرواتها ولتدمير حضاراتها ولاستعباد أهلها ولفرض منطق القوة ومذلة القهر على المغلوب دون ضوابط إنسانية، وهو الأمر الذي ما زالت تصفعنا به حتى اليوم صور القتلى من النساء والأطفال والمشوهين من المدنيين رغم كم المعاهدات التي لا تنفذ إلا بمعيار مزدوج ذي صبغة انتقائية غير منكورة، بينما التزم الفاتحون المسلمون ضوابط الحرب

في الإسلام التزامًا دقيقًا إلى حد الإعجاز، ولا غرو فهم جنود الله المجاهدون ليس من أجل دنيا يصيبونها ولكن لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا.

لن أسترسل في تفاصيل يعرفها كل قارئ ويقر بها كل منصف من التزام بالعهد وكف عن الضعفاء والمرضى، وحماية دور العبادة غير الإسلامية، وإحسان إلى الأسرى وإبلاغهم مأمنهم، وتحريم قاطع للإفساد في الأرض أو حرق للزرع والغِلال، أو الاعتداء على الآثار الحضارية للدول المحاربة، فأين اتفاقيات جنيف من وعد الرب تبارك اسمه عباده بالجنة لأنهم ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[1]، وأين اتفاقيات لاهاي من تعليمات رسول الله ﷺ لجنوده: «لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وأصلحوا وأحسنوا»[2].

لكن ما ينبغي التأكيد عليه أنه إذا كانت للحروب بين الأمم بواعث متنوعة فللحرب في الإسلام باعث واحد لا يتغير، كامن في طبيعة هذا الدين كإعلان عالمي لتحرير البشر، فهي ليست أداة لحسم نزاع، ومن باب أولى لا ينبغي بأي حال أن تكون وسيلة لإشباع روح السيطرة أو لكسب المغانم، وإنما هي الآلية الأخيرة التي تضطر إليها الدولة الإسلامية إن أعيتها الحِيَل لإبلاغ الدعوة الإسلامية لشعوب الأرض لتحريرهم من عبادة العباد وتعبيدهم لرب العباد وحده، ولأن السلطة السياسية التي تستعبد الناس عادة ما تقف بكل قوتها في وجه دعاة الله لتحول بينهم وبين إبلاغ هذا الحق الذي يحرر الناس من سلطانها الغاشم، فكان لا بد من وجود قوة موازية تعمل على إزاحة هذه السلطة لتحرر إرادة الناس حتى يمكنهم أن يختاروا دونما أدنى ضغط بين اللحاق بقافلة التوحيد وبين البقاء على دين الآباء والأجداد، فإن هم اختاروا النجاة أصبحوا جزءًا لا يتجزأ من القافلة المباركة؛ لهم حقوقها وعليهم التزاماتها، وإن اختاروا الثانية كان لهم ما أرادوا والتزم الفاتحون بحماية اختيارهم وبكفالة حريتهم في عبادة ما يريدون، بل وأصبح النظام السياسي الإسلامي ملتزمًا بأن يقاتل دون معابدهم وكنائسهم ورهبانهم

---

(١) سورة الإنسان، آية ٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، وسنن أبي داود، والترمذي؛ عن أنس بن مالك، وصححه السيوطي في الجامع الصغير.

وضعفائهم، وبأن يحمي أموالهم وثرواتهم، وبأن يقدم لهم من الخدمات وفرص الحياة مثل ما يقدم للمسلمين، وبألا يلزمهم بتشريعات تنظم أحوالهم الشخصية خارج إطار دينهم وبألا يفرض عليهم جبايا مالية مقابل ما يقدم لهم من خدمات إذا كانت تنطوي على عبادة كالزكاة المفروضة على جميع المسلمين رجالًا ونساء وشيوخا، وإنما يأخذ من رجالهم البالغين القادرين على حمل السلاح ـ فقط ـ دون النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ورجال الدين جزية مالية أقل كثيرًا من قيمة الزكاة مقابل إعفائهم من الانخراط في جيش يقاتل تحت راية دين لا يؤمنون به.

إنها الرفعة الإنسانية في ذُرى مجدها...

إنه الإسلام...

لذا ما كان في سفر التاريخ الإنساني من صفحات مشرقات في معاملة الأقليات الدينية أو العرقية إلا تلك التي خطتها النظم الإسلامية إبان حملها مشاعل النور إلى شعوب مقهورة لتخرجها من ظلمات الجهل والظلم ولتحقق بها ومعها نماذج حية للعدل الإسلامي لم ينكرها غير حاقد كاذب أو مهزوم في داخله مرتعب من سطوة ثقافية وإرهاب فكري يجلدنا به أعداء الله الذين غلبونا آناء الليل وأطراف النهار.

ولقد انطلق طارق بن زياد بجيشه من البربر الذين قال عنهم أحد قواد القوط: «جند لا أدري أهم من أهل الأرض أم من أهل السماء»، وقال عنهم آخر: «رهبان الليل فرسان النهار»، وهكذا رفعهم الإسلام إلى ذراه الشامخة فأصبحوا مثالًا يُحتذى به وقدموا بأفعالهم وبأخلاقهم البرهان على أنهم جنود المعزّي الذي بشّر به المسيح فانضم لهم القوط الذين آمنوا بالرسالة الخاتمة وانطلقوا يفتحون باقي مدن الأندلس، وفي رمضان التالي من عام ٩٣هـ لحق بهم موسى بن نصير بجيش من العرب، فلم يمض عامان حتى كان المسلمون ـ البربر والقوط والعرب ـ قد فتحوا شبه الجزيرة الأيبيرية كلها وجنوب فرنسا، ولولا رفض الوليد بن عبد الملك لانطلق موسى بن نصير فاتحًا بلاد أوروبا متوجهًا إلى القسطنطينية التي ما زالت عصية على الفتح من جهة الشرق فأراد فتحها من الغرب، لكنه عاد ومعه طارق امتثالًا لأمر الخليفة تاركًا أرضًا أشرقت عليها أنوار الحق وأضحت ممهدة لإقامة دولة موحدة تضم أعراقًا ثلاثة مختلفة، فكيف سار بهم الحال؟

الأيام دُوَل

قامت دولة الإسلام في الأندلس منذ فتحها القائد البربري طارق بن زياد عام ٩٢هـ الموافق ٧١١م واستمرت طوال ثمانية قرون حتى سقطت آخر معاقلها وأجمل مدن العالم آنذاك «غرناطة» عام ٨٩٧ هـ الموافق ١٤٩٢م.

يقول الرب تقدست أسماؤه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾[1].

وما بين صيحة القائد القوطي الذي بهرته عزة جيش الفتح الإسلامي وبأسه وتقواه: «قد أتاكم جند لا أدري أهم من أهل الأرض أم من أهل السماء»، وبين تبكيت عائشة الحرة لابنها أبي عبد الله بن الأحمر وهو يبكي بعد أن سلم الأسبان الغازين لبلاده مفاتحها: «ابكِ كالنساء ملكًا مضاعًا لم تحافظ عليه كالرجال»، قامت حضارة عظيمة أذهلت العالم وما زالت تذهله بإنجازات كان لها الفضل الأول في إيقاظ أوروبا من ظلمات العصور الوسطى لتدخل عصر النهضة والعلم والتنوير والتقدم والمدنية.

ولقد قيل كثيرًا عن تلك الحضارة وما زال يقال ويكتب ما تنوء به المجلدات، ولسنا هنا في مجال الحديث عن حضارة الأندلس الإسلامية فلذلك مجال آخر، ولكنا في رحلتنا مع البربر الذين شكلوا مكونًا أساسيًا من مكونات تلك الحضارة وأثّروا عليها إيجابًا وسلبًا نكتفي بأضواء سريعة على شهادات غربية عن فترة ازدهارها هناك:

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٤٠.

فلنقرأ معًا ما كتبه ستانلي لين بول في كتابه «العرب في إسبانيا» ـ لاحظ الخلط الغربي الذي انتقل للمؤلَّفات العربية بين العرب والمسلمين ـ: «لم تنعم إسبانيا طوال تاريخها بحكم رحيم عادل كما نعمت به في أيام المسلمين»، ولنطالع ما سطره ول ديورانت في موسوعته «قصة الحضارة»: «بلغت إيرادات الأندلس في أيام عبد الرحمن الثالث ما يفوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة، ولم يكن مصدر هذه الإيرادات هو الضرائب العالية بقدر ما كان أثرًا من آثار الحكم الصالح وتقدم الزراعة ورواج التجارة.. ولقد كان حكم العرب نعمة وبركة، وقد حرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع.. وقد كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين..إلخ»، أتريدون نصًّا آخر؟ إذًا فلننظر معًا هذه الشكاية التي خطها ألفارو؛ وهو كاتب مسيحي من القرن التاسع الميلادي: «وا أسفا على شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب، ليسوا على علم بأي أدب ولا لغة غير العربية فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة، وإنهم ليترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون في زراية ـ إذا ذكرت الكتب المسيحية ـ بأن تلك المؤلفات غير جديرة باحترامهم»، أتذكرك تلك الشكاية بشبابنا الجاهل لغته المتأفف منها المتقافز كبهلوان على أحبال صرعات الإيموز والميتالز؟! لا تتعجب فإنها سطوة ثقافة الغالب على المغلوب، ولا تحزن فالأيام دول ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾[1].

وقد استفزت مثل تلك الشكايات الكنيسة الكاثوليكية المرتعبة أصلًا منذ طرقت أبوابها طلائع الفتح، فكانت جرائم الإرهاب ومحاكم التفتيش وحروب الإبادة التي شنتها على مسلمي الأندلس بعد سقوطها، والتي كتب عن بشاعتها مؤلفو الغرب أكثر مما كتب المسلمون أنفسهم، ثم واصل المستشرقون الموفدون من الكنيسة جهودهم ـ الناجحة ـ في تشويه التاريخ الإسلامي سواء في نظر الغربيين لصرفهم عن التعلق بالإسلام الذي انبهروا به أو في نظر المهزومين نفسيًا من أبنائه ومن المحسوبين عليه.

ولقد كانت للمسلمين في الأندلس عبر ثمانية قرون دولة أخذت مسارات صعود

(١) سورة آل عمران، آية ١٤٠.

وهبوط وتمكين وانحدار حتى جاءت الخاتمة المأساوية التي ما زالت تمثل جرحًا غائرًا في قلب كل مسلم، وفي تلك الدولة كوّن العرب والبربر والقوط الذين تَحوَّل أكثرهم للإسلام والمولدون نتاج التزاوج بين الوافدين وأهل البلاد، كونوا كيانًا واحدًا ظل يتأرجح بين التماسك والاختلاف لتتحقق سنة الله التي لا تحابي أحدًا من الناس ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[1]، ولقد انهار البنيان الحضاري العظيم حين تخلخلت ثوابت العقيدة التي تأسس عليها، ومن هذه الثوابت المساواة وعدم التفاضل بالعِرق أو بالنسب: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى»[2]، وقد كان من أهم مؤشرات الضعف والتدني ثم الانهيار أن يتعالى العرب بأنسابهم وبأنهم قوم النبي ﷺ ثم يتصارعون قَبَليًا بين عاربة ومستعربة، أو يتفاخر البربر بأنهم طلائع جيش الفتح وأنهم قرابة طارق بن زياد، أو يعالن المولدون بكونهم الأغلبية العددية وأصحاب الأرض الأصليين، وقد حدثت بعض هذه الفتن على فترات قصيرة ومتباعدة، وكانت تنتهي سريعًا بتحكيم دقيق لضوابط العدل الإسلامية، لكن بعد أن تمنح الفرصة تلو الأخرى لنمو البؤر الصليبية التي تكونت في الشمال الغربي من الشرذمة التي فرَّت بعد معركة وادي لكة والتي لم يعرها موسى بن نصير اهتمامًا في خضم تحمسه للانطلاق شرقًا عبر القارة الأوروبية مستهدفًا القسطنطينية، وقد انضم لتلك الشرذمة آخرون وضعهم بابا روما تحت رعايته المادية والمعنوية وظلوا رابضين متربصين بالأندلس طوال القرون يقويهم ضعف المسلمين وتضعفهم قوتهم.

حتى حدثت الفتنة الكبرى التي كادت تعصف بدولة الأندلس الإسلامية وذلك بعد أقل من أربعة قرون من نشأتها، ولولا أن قَيَّض الله لها سيفًا من سيوفه لنقص من عمر دولة الإسلام هناك ما يزيد على أربعة قرون كاملة ولتغير وجه التاريخ الإنساني بأسره.

فقد تشابكت مجموعة من العوامل داخل النفس البربرية العصية على الانضواء ـ والتي لم يروضها سوى تطبيق حازم وأمين لقواعد العدل والمؤاخاة الإسلامية ـ لتؤدي

(١) سورة الأنفال، آية ٤٦.

(٢) مسند الإمام أحمد عن أبي نضرة، ورواه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد، والبزار بنحوه.

إلى نفور شديد وصل إلى حد العداء والتقاتل بين العرب والبربر مهَّد له بعض ولاة إفريقيا من متعصبي العرب الذين جاءوا بعد موسى بن نصير، وذلك بظلمهم لقبائل البربر مما أدى إلى هجرة كثير منهم إلى الأندلس حيث تحالفوا مع بربر الأندلس ومع عرب اليمن «البلديين» ضد عرب الشام، ثم كانت الثورات البربرية وحركات الانفصال في الأندلس وما ترتب عليها من فوضى سياسية قابلتها ثورة المولدين التي عُدت من أهم أسباب سقوط الدولة الأموية وقيام دويلات الطوائف ثم بقائها ستين عامًا حالكة السواد.

أكذوبة الريكونكستا

إثر انهزام جيش رودريكو أمام طارق بن زياد في موقعة وادي لكة هرب أحد قواده ويدعى بيلايو إلى أقصى الشمال الغربي للأندلس ولحق به بعض القواد ورجال الدين الكاثوليك فاحتموا في مغارة «كافادونجا» التي سميت منذئذ «صخرة بيلايو»، وكانوا قليلي العدد فلم يهتم المسلمون بأمرهم، إلا أن هذه المغارة شكلت بؤرة صليبية ظلت تؤرق دولة الأندلس الإسلامية قرونًا عديدة إذ تطورت حتى أصبحت دويلة تقبع في شمال الأندلس سميت بمملكة أشتوريش التي أصبحت ليون ثم توسعت مستغلة مراحل ضعف المسلمين وانقساماتهم فضمت الأراضي المتاخمة لها حتى أصبحت بنهاية دولة الأمويين في الأندلس وبسبب ضعف الحكومات وتوالي الثورات والانقسامات الطائفية دولة شمالية لها قوتها وسيطرتها بعدما تمكن فرناندو الأول من ضم مملكة ليون إلى قشتالة ـ وهي التحريف العربي لكلمة «Castillo» أي القلعة بالإسبانية ـ لتصبح دولة قوية في الشمال «دولة قشتالة» التي ستبرز إلى مسرح الأحداث مع انقسام الأندلس إلى دويلات.

فمع نهايات عام ٤٢٢ هـ الموافق ١٠٣١م وإثر قيام الوزير أبو الحزم بن جهور بإخماد ثورة البربر في قرطبة ثم اندلاع ثورة المولدين ضد الحكم الأموي، أعلن ابن جهور إنهاء الخلافة الأموية في الأندلس لعدم وجود من يصلح للولاية وتأسيس ما أطلق عليه «حكومة الجماعة» وهو نموذج مبكر لنظام حكم الأقلية الأرستقراطية الذي استلهمته مدن إيطاليا فيما بعد إبان عصر النهضة الأوروبية، وكان ذلك الإعلان إيذانًا ببدء ما سُمي في التاريخ الأندلسي بعصر «دويلات الطوائف»؛ إذ تمزقت الدولة



٤ـ صورة حديثة من الجو لصخرة بيلايو بشمال إسبانيا.

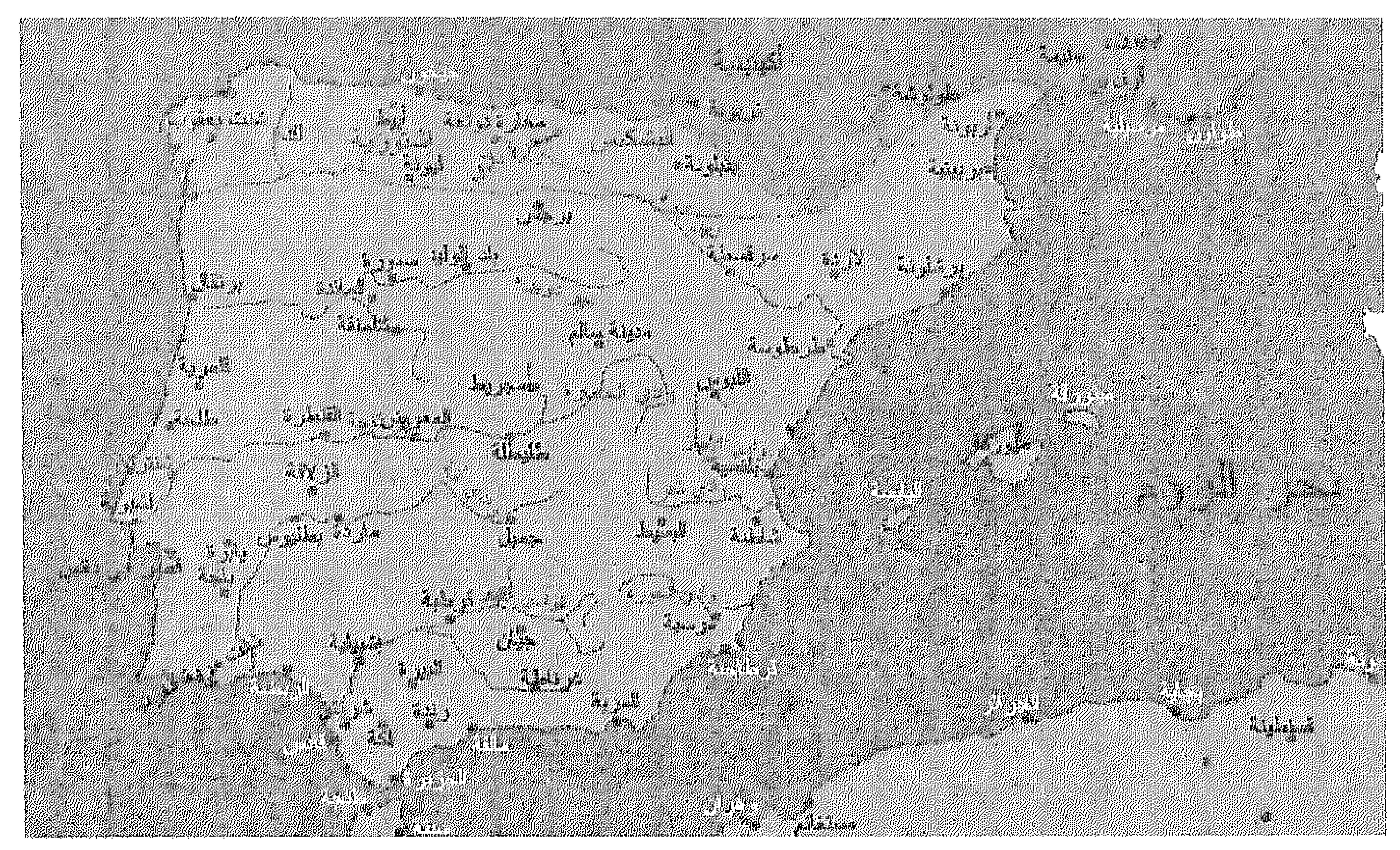
الإسلامية الموحدة إلى مجموعة من الدويلات الصغيرة بلغت اثنتين وعشرين دويلة كغرناطة وسرقسطة وإشبيلية وألمرية وطليطلة وغيرها من الدويلات التي قامت على أساس عرقي؛ فهذه للعرب وتلك للبربر وأخرى للمولدين من أصل إسباني وهكذا، ولكل دويلة جيش مستقل وحاكم تَسمَّى بلقب خلافي لا يتناسب مع حجم مملكته ولا مع قوتها، حيث أدى التقسيم والتشرذم ثم التصارع على مناطق النفوذ إلى النتيجة المتوقعة من ضعف وتهافت إزاء القوة المتصاعدة لمملكة قشتالة الموحدة في الشمال والتي ظلت تترقب لحظة الضعف التي جاءتها مكللة بعار وهوان حتى أضحت مثالًا تاريخيًّا مواتيًا لمن يروم الاستدلال بمذلة قوم، وصاغها الأدباء شعرًا ونثرًا، ومن ذلك ما قاله الحسن بن رشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس ... سماع مُقتدرٍ فيها ومعتضدِ

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد

وقد وصل التدني بهؤلاء الحكام إلى حد الاستعانة بملوك قشتالة في حروبهم ضد بعضهم البعض مما مهد لتدخل العدو وتعرفه على نقاط ضعف المسلمين ثم إملاء شروطه على

من يطلب نصرته؛ وهي الشروط التي تراوحت بين دفع إتاوة مالية والتنازل عن بعض الحصون والقلاع الإسلامية والامتناع عن التدخل إذا ما نشب قتال بين القشتاليين وإحدى الدويلات الإسلامية الأخرى، وصيغ هذا كله في معاهدات مخزية لم يلتزم



٥ ـ خريطة للأندلس الإسلامية توضح البؤر الصليبية في الشمال.

ببنودها ـ كالعادة ـ سوى المسلمين.

وعلى الجانب الآخر ظلت الكنيسة الكاثوليكية ترقب الأمر لسنوات حتى اطمأنت إلى تهافت ملوك الطوائف وتصارعهم على المكتسبات المادية ومناطق النفوذ ثم سيطرة ملوك قشتالة عليهم نتيجة معاهدات الذل التي وقّعوها معهم، وفي الظلام الدامس حيكت خيوط أكبر أكاذيب التاريخ والتي لا يدانيها في الزور والبهتان غير أكذوبة الحق التاريخي لليهود في فلسطين، وما أشبه الليلة بالبارحة، وهي أكذوبة لاريكونكيستا (Lareconquista) أو الاسترداد، إذ أعلن البابا إسكندر الثاني حرب الصليب المقدسة ضد مسلمي الأندلس وأصدر مرسومًا بالغفران لكل مسيحي يشارك في القتال، وهكذا تقاطر الفرسان المقاتلون من وراء جبال البيرنيه منضمين إلى القشتاليين بقيادة ألفونسو السادس تدفعهم صيحات الفاتيكان المؤلبة وقدرته الفائقة على تزييف التاريخ والادعاء

بأن المسلمين سلبوا الأندلس من حوزة الفاتيكان رغمًا عن كون أكثر أهل الأندلس في ذلك الوقت هم أحفاد القوط الذين دخلوا في دين الله مع الفتح الإسلامي بعدما عانوا طويلًا من الاضطهاد الديني لاختلاف مذهبهم عن مذهب الكنيسة كما بيَّنَّا سابقًا.

وهكذا تنازع مسلمو الأندلس ففشلوا وذهبت ريحهم في حين تجمع الفرسان المقاتلون تحت راية الصليب، وفي يوم أسود حالك السواد؛ يوم الأحد ٢٥ مايو ١٠٨٥ ميلادية الموافق الأول من شهر صفر عام ٤٧٨ هجرية، وقعت الواقعة التي ارتجت لها جنبات العالم الإسلامي؛ شرقه وغربه والتي ما زالت تمثل حتى اليوم جرحًا نازفًا في قلب كل مسلم وترنيمة شجن حزينة تحدو مسيرة قافلة الإيمان عبر الزمن لتذكّر أصحابها بجزاء الجنوح بعيدًا عن المنهج الرباني القويم، في ذلك اليوم الأسود الحزين سقطت طليطلة حاضرة الدنيا ودرة الأفئدة وعاصمة الأندلس البهية بعد حصار دام ما يقرب من عام كامل استصرخت فيه مروءة حكام الطوائف الجبناء فلم يهب أحد لنجدتها، وظلوا قابعين داخل جحورهم يتوددون إلى ألفونسو السادس ويدفعون له الجزية عن يد وهم صاغرون بينما يعصفون بكل معارض ويملئون الزنازين بخيرة العلماء الذين أخلصوا لهم النصح وحرضوهم على مد يد العون لطليطلة الذبيحة، ولكن هيهات أن تُسمِع من أخلد إلى الأرض وارتضى المذلة.

وهكذا ظلت طليطلة تحت الحصار تستنجد بلا طائل حتى هوت في يوم أسود ودخلها ألفونسو بخيله ورجله فأعمل في أهلها القتل والتشريد وحوَّل مسجدها الجامع إلى كنيسة، ولما اطمأن إلى أنه استلب الدولة من وسطها وليس من أطرافها وأنه بات قاب قوسين أو أدنى من الاستيلاء على كامل الأندلس أسرع بخرق معاهدات الدفاع المشترك التي أبرمها مع ملوك الطوائف ووضع خطة للانتقال من طليطلة إلى ما يجاورها من دويلات، وهكذا انقلب السحر على الساحر، وباتت الدول التي جبنت عن مد يد العون لطليطلة متعللة باحترام بنود معاهدات العار التي أبرمتها مع قشتالة ومتوهمة أنها في مأمن من غدر العدو، باتت هذه الدول الهدف التالي الوشيك لفرسان أكذوبة الاسترداد، وها قد حان وقت الحساب واشرأبت أعناق الشعوب تترقب صنيع قادتها، أتراهم بقي لهم صنيع ؟!

كلمة غيرت التاريخ

بينما طليطلة الغالية تئن تحت الحصار الصليبي الغادر وتستصرخ شهامة من حادوا عن الطريق ورضوا بالذل بعد طول عز كان ملوك الطوائف يتنافسون في التودد إلى ألفونسو السادس ظنًا منهم أن ذلك يصرف عنهم شبح الاحتلال ويؤمن بقاءهم وذرياتهم على كراسي الحكم، وجهلًا منهم بحقائق التاريخ هرولوا يوقِّعون معاهدات مع عدوهم غَلَّت أيديهم عن نجدة الجارة المحاصرة حتى سقطت.

لم يخرج عن إجماع الذل سوى المتوكل على الله بن الأفطس أمير بطليوس الذي رفض التحالف مع القشتاليين أو دفع الجزية لهم، بل أرسل إلى ألفونسو إنذارًا شديد اللهجة يهدده بإعلان الجهاد إن فكر في مهاجمة إمارته، وحين حوصرت طليطلة بعث بولده الفضل على رأس جيش بطليوسي في محاولة لصد الزحف القشتالي، وكان خلال ذلك يبذل ما وسعه لجمع شتات ملوك الطوائف ليتفقوا على موقف واحد، ولكن ذهب سعيه أدراج الرياح.

وعلى الجانب الآخر وقف المعتمد بن عباد ملك إشبيلية وأقوى ملوك الطوائف حينئذ موقفًا مخزيًا من حصار طليطلة حيث كان بوسعه أن يمد لها يد العون إلا أنه تعلل بمعاهدته مع قشتالة التي تلزمه بنودها بتقديم تسهيلات عسكرية لها فقبع مترقبًا متجاهلًا صيحات الاعتراض من علماء الأمة حتى سقطت عاصمة الأندلس التليدة طليطلة.

وُلد المعتمد بن عباد في البرتغال، وكان فارسًا شاعرًا شجاعًا، وقد ورث الـمُلك

عن والده وهو في الثلاثين بعد أن توسعت مملكة إشبيلية الجنوبية فضمت قرطبة وماردة وأستجة ومرسية حتى أصبحت أقوى ممالك الأندلس حينئذ، كما ازدهرت الحركة العلمية والفنية والأدبية في عهده ازدهارًا كبيرًا فعُدت إشبيلية بحق عاصمة العلم والأدب في عهد ملوك الطوائف، وبدلًا من أن يدرك حاكمها أن قوتها ومنعتها هما سبب ازدهارها فإنه لجأ إلى التحالف مع العدو القشتالي فتقلصت دائرة نفوذه، ولم يقف ذله وتراجعه عند حد تقديم التسهيلات السياسية والمالية والعسكرية التي أدت إلى سقوط الجارة الشمالية طليطلة، وإنما بلغ هوانه على نفسه ثم على حليفه القشتالي ما أبلغ السيل الزُّبَى كما يقولون، فبينما هو ينعم بعز لا ينال بمذلة أبدًا إذ وصل إليه رسول من ألفونسو السادس يحمل رسالة عجيبة المحتوى.

تحضرني ـ قبل أن أنقل لكم ما جاء برسالة ألفونسو إلى المعتمد ـ رسالة سابقة وصلت إلى الخليفة الأندلسي الأموي قبل نحو قرن من الزمان أرسلها ملك إنجلترا مع سفير من الأمراء يحمل هدايا التودد إلى أعظم ملوك أوروبا في ذلك الوقت «عبد الرحمن الناصر» يرجوه فيها أن يوافق على إلحاق أربعة من علماء إنجلترا بجامعة قرطبة ـ ثاني أكبر أكاديميات العالم وقتها بعد جامعة بغداد ـ لينهلوا من علوم المسلمين المتقدمة، كما يرجوه فيها أن يقبل إقامة ابنتيه لفترة في قصر الزهراء لتتأدبا بالآداب الراقية ولتتعلما في القصر الإسلامي أصول البروتوكول الملكي، وقد خُتمت الرسالة التي ما زالت محفوظة حتى اليوم بخاتم ملك إنجلترا بجوار توقيعه «خادمكم الأمين جورج الثاني ملك إنجلترا».

فلنقارن بين تلك الرسالة وهذه التي وردت من ملك قشتالة إلى المعتمد بن عباد والتي أرسلها له مع وزيره اليهودي شليب يطالبه فيها بإعداد جامع قرطبة لكي تلد فيه زوجة ألفونسو الحامل حيث تنبأ لها الكهنة بأنها إن ولدت ولدًا في هذا الجامع فسوف يدين له المسلمون بالولاء.

كلٌّ من الرسالتين وردت من ملك أجنبي إلى ملك أندلسي، قرطبة هي هي عاصمة العلوم والآداب والفنون، إشبيلية أقوى وأغنى وأجمل ممالك أوروبا في عصر المعتمد، فلماذا كانت الرسالة الأولى مثالًا للعز بينما لا تحمل الثانية غير مؤشرات الذل الذي

جاوز كل الحدود؟ ما الفارق بين الناصر وابن عباد؟ كل منهما ملك مسلم، وكل منهما أولى اهتمامًا خاصًا بالازدهار المادي والحضاري لمملكته، واشتهر عصر كل منهما بالاستغراق في المباهج إلى حد بلغ الترف والتبذير.

يظهر الفارق بين الرسالتين واضحًا في ضوء حديث رسول الله ﷺ: «إذا ترك قوم الجهاد سلط الله عليهم ذُلًّا لا ينزعه حتى يرجعوا إلى دينهم»[1]، ولقد كان الخليفة الأموي مجاهدًا بينما رضي ابن عباد بالقعود، أفتراه رجع بعدما فرَّط وضيع؟ نعم. ولقد أعادته لطمة حليفه إلى الوعي.

كانت الرسالة المخزية وتطاول شليب اليهودي على المعتمد سببًا لاستعادته فطرته الشجاعة الأبية فقتل رسول ألفونسو ثم استدعى علماء قرطبة على رأسهم فقيهها الجليل عبد الله بن أدهم ليستشيرهم فيما يجب فعله، خاصة وقد كان رد فعل ألفونسو على قتل رسوله أن تحرك بجيوشه من طليطلة السليبة محاصرًا قرطبة، فأجمع العلماء على ضرورة عقد تحالف بين ممالك الأندلس ثم إعلان الجهاد لصد العدو، وهنا يقف التاريخ ليسجل ما دار في اجتماع قمة ملوك الطوائف الذي دعا إليه ابن عباد في قرطبة لتدارك الموقف.. نعم يقف التاريخ حابسًا أنفاسه إزاء تلك اللحظة الفاصلة بين عز لا يرضى الإسلام عنه بديلًا ومذلة تهوي بصاحبها إلى درك ليس له قرار.

كان العلماء قد قاموا بدورهم في شحذ الهمم وإيقاظ الضمائر وتنبيه الغافلين وتذكيرهم بمأساة طليطلة فبدا الرأي العام متمحورًا حول قضية الجهاد رافضًا التقاعس عنها أو الالتفاف حولها، غير أن ملوك الطوائف وقد أدمنوا القعود وتسربلوا بثياب الذل بدوا مترددين عدا رجلين فقط: المتوكل أمير بطليوس الشجاع، والمعتمد ملك إشبيلية الجريح.

قال الملوك: ليس لنا طاقة بألفونسو وجنده. فأجاب المتوكل: ما يتربصون بنا إلا إحدى الحسنيين؛ إما نصر وإما شهادة، قال الملوك: علينا حسن الإعداد قبل اللقاء،

---

(١) أحمد في مسنده، وسنن أبي داود، والطبراني في الكبير، والبيهقي، عن ابن عمر؛ وصححه السيوطي في الجامع الصغير.

فأجاب المتوكل: فلنستنجد بأمير المسلمين، قال الملوك: لا يجتمع السيفان في غمد واحد ـ يريدون أن يخوفوه من الاستنصار بقوة خارجية فتطيح بعروشهم وتستولي على ملكهم ـ وهنا يخرج المعتمد بن عباد عن صمته قائلًا في حسم: «رعي الإبل خير من رعي الخنازير»، فماذا كان مقصده؟

انتقام الإبل

مع نهايات القرن الأول الهجري وبدايات القرن الثامن الميلادي انطلق القائد المسلم طارق بن زياد على رأس جيش بلغ اثني عشر ألف رجل من البربر من مدينة سبتة بأقصى شمال المغرب عابرًا الممر البحري بين قارتي إفريقيا وأوروبا ـ مضيق جبل طارق ـ فاتحا الأندلس، ناقلًا قبسة من نور الإسلام من صحراء المغرب إلى بلاد الهمج لتصبح بفضله حاضرة أوروبا الزاهرة.

ومع بدايات القرن الخامس الهجري ونهايات القرن العاشر الميلادي ـ أي بعد ثلاثة قرون فقط ـ تصيب المسلمين على جانبي المضيق ذاته آفة الاختلاف والتفرق وتمزيق أواصر الدولة والدخول في نفق الطوائف المظلم، فتتمزق الأندلس إلى دويلات يتقاسمها المولدون أهل البلد الأصليون والعرب والبربر من الفاتحين والمهاجرين، بينما تتمزق المغرب إلى أشلاء يتقاسمها السكان الأصليون البربر وينازعهم عليها عرب ليسوا كالعرب الفاتحين الذين جاءوا ينشرون النور والهدى والرحمة في ربوع المكان وإنما ينتمون إلى معدن آخر ويعتنقون فكرًا ومنهجًا لم يتسبب فقط في تمزيق أواصر الدولة الإسلامية القوية في المغرب وإنما تسبب في إخراج البربر من دين الحق الذي دخلوا فيه أفواجًا مع استبقاء لافتة الإسلام مرفوعة دون محتوى.. حتى قال عنهم العلماء ـ ومنهم ابن خلدون ـ إنهم في تلك المرحلة من التاريخ كانوا قد خرجوا بأفعالهم من الملة الإسلامية.

لكي نفهم مقصد المعتمد بن عباد من قولته التاريخية: «رعي الإبل خير من رعي الخنازير» يحسن بنا أن نَعبُر مضيق جبل طارق عائدين إلى صحراء المغرب الكبرى التي لم تتغير سماتها الطبيعية مذ تركها القائد البربري المظفر قبل ثلاثة قرون: فما زالت شاسعة

الاتساع، قليلة السكان، قاحلة، شديدة الحرارة، عديمة المطر، بكثبانها الرملية الجدبة المترامية تضربها الرياح الساخنة فيضطرب سطحها كموج البحر الذي يتنقل من مكان لآخر حاملًا معه التصحر والبوار، وما زال رعاة الإبل «الجمّالة الكبار» يقودون قطعانهم عبر آلاف الكيلومترات القاحلة الممتدة في جميع الاتجاهات يتلمسون العُشب والماء.

غير أن الزمان دار دورته، وبدلًا من موسى بن نصير القائد السياسي البارع ـ الذي أدرك طبيعة البربر العصية على الاحتواء الأبية على احتمال الظلم والقهر والاستبداد فاستطاع خلال ولايته أن يصنع من هؤلاء الجمالة النافرين جيشًا نظاميًا قويًا كان طليعة العبور إلى أوروبا وفتح الأندلس ـ يفد إلى المغرب من الولاة العرب المتعصبين من يهدم أسس العدل والمؤاخاة الإسلامية التي أرساها ابن نصير، فيقع الصراع بين العرب والبربر منذ مرحلة مبكرة كنتيجة للسياسات الفاشلة ليزيد بن أبي مسلم وبشر ابن صفوان، ثم يصل الاحتقان إلى ذروته في عهد عبيد الله بن الحبحاب الذي لجأ إلى استخدام العنف المقيت في ردع ثورات القبائل البربرية حتى غزا ديارهم وسبى نساءهم فانفجر الوضع بين الطرفين وحدثت فتن متعاقبة كان لها مردودها السلبي ليس فقط على بلاد المغرب بل امتدت إلى الأندلس التي هاجرت إليها جماعات ناقمة من البربر فتحالفوا مع عرب اليمن ضد عرب الشام الذين ينتمي إليهم ولاة المغرب وتسببوا في الفتن والقلاقل التي أنهكت الحكومة الأموية في الأندلس وكانت السبب المباشر لتمزق الدولة ولسقوط عاصمتها طليطلة.

هناك نصيحة يسوقها الخبراء لصاحب الجمل الذي يعتدي عليه بالضرب أو الإهانة؛ وهي إما أن يبيعه أو يذبحه؛ إذ الجمل حيوان ذو كرامة ونخوة وإباء فإن أهانه صاحبه فإنه يختزن حقده داخله مهما طال الزمن حتى تأتي اللحظة المناسبة فينتقم انتقامًا مروعًا لا يقل عن سفك دماء من أهانه، ولرعاة الجمال الخصيصة ذاتها فهم البربر الأحرار ذوو الإباء، لم تروضهم وتستخرج من نفوسهم أروع ما فيها إلا مبادئ الإسلام العادلة السامية التي تحرر الإنسان من كل عبودية إلا عبوديته لله عز وجل، لذا فالبربر في كل زمان لا يصلح معهم ولا يصلحهم سوى تطبيق النظام السياسي الإسلامي القائم على العدل ونبذ العنصرية والذي يجعل منهم قوة فاعلة تضاف إلى المجتمع وليس عبئًا

يعرقل مسيرته كما في فترات الضعف والانحلال والاستبداد بالناس وظلمهم تحت راية الإسلام.

وهكذا تسبب استبداد الولاة وعشوائية سياساتهم في أن تصبح منطقة القبائل مرتعًا خصبًا لحركات الانفصال المناهضة لدولة الخلافة حتى مع تناقض منطلقاتها الشرعية، فمن الخارجية الإباضية إلى التشيع الإسماعيلي الفاطمي انحرف مسار البربر بعيدًا عن النهج الإسلامي القويم، إنه الانتقام البربري المروع الشبيه بانتقام الإبل؛ ذلك الذي أدى إلى أن تنشأ في بلاد المغرب نواة الدولة الفاطمية على يد الداعي أبي عبد الله الشيعي، وهي الدولة التي نشأت ـ حسب الاعتقاد الإسماعيلي ـ في غيبة الإمام المهدي المعصوم الذي ادعوا ظهوره في شخص عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين والذي نسب نفسه لآل بيت النبوة من ذرية السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

غير أن موقفًا طريفًا حدث عندما خرج الداعي على رأس وفد من أعيان القبائل لاستقبال الإمام المهدي عند قدومه إلى المغرب ألقى في نفوسهم بذرة مبكرة من النفور من هذا الاتجاه برمته، فقد فوجئ القادة بالداعي الشيعي الذي وقَّروه وقدَّموه وأعلوا مكانه بينهم ينزل عن دابته مُنكبًا على يدي وقدمي عبيد الله المهدي يقبلهما ثم يتمسح بقوائم دابة سيده في خضوع مذل مهين، وإذ به يلتفت إلى رءوس القبائل قائلًا لهم: «هذا مولاي الإمام فهو مولاكم»، هالهم الموقف وبدا ذلك واضحًا على ملامحهم المشمئزة النافرة فتنبه عبيد الله وقال لداعيه بدهاء: «بل قل لهم هو المهدي ابن المهدي سلالة الهداية».

كانت بذرة الشك والنفور قد أُلقيت في نفوس قوم دخلوا قبل زمان طويل في دين جاء ليحرر البشر كلهم من عبودية البشر كلهم وليعبّدهم لرب واحد لا شريك له، دين قال رسوله لرجل اضطرب من فرط هيبته ﷺ: «هوِّن عليك فلستُ بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[1]، فما بال رجال يأتون ينسبون أنفسهم لهذا الرسول الكريم ـ صدقًا أو زورًا ـ يرضون لأتباعهم أن يصنعوا بهم فوق ما تصنع الأعاجم بملوكها؟ لذا فما كاد المستور ينكشف ويتخلص الإمام من داعيه بقتله قتلة شنعاء بعد انتهاء مهمته حتى ثارت النفوس ممهدة لتحول سياسي هام.

(١) أخرجه الحاكم، وابن ماجه، والطبراني، من حديث جرير، وصححه السيوطي في الجامع الصغير.

الخروج من الملة

عقب وفاة عبيد الله المهدي تولى الحكم في المغرب ابنه القائم أبو القاسم محمد، لكنه عدل عن منهج التقية الذي اتخذه أبوه وقام بإظهار مذهبه حيث أعلن الطعن على كتاب الله وسب الصحابة وإرغام الناس على التشيع بالقوة وتعذيب من يعترض حتى الموت، وهنا أدرك البربر ما جنته أيديهم فثاروا على الدولة الفاطمية التي مهدوا لتأسيسها وهي الثورة التي قادها علماء السنة والجماعة من أتباع المذهب المالكي وجابهها الفاطميون بعنف دموي ليس له مثيل حتى شهدت منطقة القبائل المغربية مذابح متتالية عُرفت في التاريخ بـ«عصر شهداء المالكية» على غرار عصور الشهداء القبطية.

إلا أن الثورة المالكية لم تهدأ رغم محاولة الفاطميين العودة إلى تطبيق مبدأ التقية وإخفاء حقيقة المذهب وبذل الأموال والهدايا لاستمالة العامة وإنما ظلت مشتعلة حتى ارتحل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر ليقيم بها الدولة الفاطمية، وكانت آخر وصاياه لنائبه بالمغرب ألا يرفع الجباية ولا السيف عن البربر!! هؤلاء البربر الذين كانوا ـ بعد زمن طويل من المعاناة ومن الانحراف عن الإسلام ـ قد خرجوا من الدين بالكلية عدا لافتة فارغة المضمون، ساعد على ذلك الطبيعة الجغرافية الوعرة التي جعلتهم بمنأى عن علماء الدين الذين تجمعوا في منطقة القيروان بعد المذابح التي أنهكتهم فاعتزلوا الناس وتفرغوا للعبادة ولدراسة العلوم في أماكن قريبة من الساحل الشمالي سُميت بالأربطة وكانت تشبه في تلك الفترة إلى حد بعيد صوامع الرهبان الصحراوية.

على مدار قرنين من الزمان انسلَّ البربر المسلمون من دينهم ونقضوه عروة عروة حتى خرجوا منه تمامًا وهم يظنون أنهم مسلمون، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «لتنتقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها،

وأولهن نقضًا الحكم وآخرهن الصلاة»[1]، ولقد وصل الأمر بهم إلى حد وضع شرائع خاصة للعبادات وللمعاملات فخرج فيهم من جعل الصلاة مرتين عند طلوع الشمس وعند غروبها، ومَن أسقط عنهم الوضوء، ومَن حرم عليهم أكل السمك حتى يُذبح وأحل لهم لحم أنثى الخنزير، ومَن زعم أنه المهدي المنتظر القادم لقتال المسيح الدجال، وعادوا إلى ممارسة السحر والشعوذة كعهود وثنيتهم، كما انتشر الزنى والإباحية بشكل كبير، وكان للمرأة في هذا الجنوح دور كبير.

ذلك أن المرأة البربرية ليست جميلة فحسب بل هي أجمل نساء الأرض قاطبة كما قرر كثير من الرحالة والباحثين ولنا في نساء الطوارق[2] الحاليين شواهد عدة، وإذا كانت منطقة البلقان قد اشتهرت بالجمال الأنثوي فإنه من ذلك الصنف الذي ينتمي بطبيعته إلى نوعية «الحريم»؛ لذا يأتي الإسلام ليحررهن من إسار ذلك الحريم وليستنهض هِممهن، أما البربرية فجمالها من نوع مختلف... إنه ذلك الجمال الفطري الرعوي المتمرد بطبعه والمكتمل بالقوة الجسدية والنفسية كليهما؛ لذا فإن النهج الإسلامي القويم يتكفل بوضع الضوابط التي تحد من تحررها الفطري لتسمو بنفسها عن الدنايا دون أن تعوق حركتها أو تغتال شخصيتها وهو ما يتضح لنا من دراسة سِير الشخصيات النسائية البربرية على مر التاريخ.

ولقد تميز المجتمع البربري منذ فجر تاريخه بالنظام الأموي «الماترياركي» الذي يمنح المرأة مركز السيادة في الأسرة وينسب الأبناء إليها، ومن ذلك أن اسم أكبر القبائل البربرية على الإطلاق وهي صنهاجة ـ أجداد الطوارق الحاليين ـ هو اسم امرأة، وكذا قبيلة لمتونة أحد أفرع صنهاجة تنتسب لامرأة أيضًا، وهو الحال في كثير من قبائل البربر التي استمرت المرأة فيها ـ حتى بعد غلبة النظام الأبوي «الباترياركي» ـ تتمتع بمركز ممتاز أقرها عليه الإسلام ووضع له الضوابط، فلما كان الخروج من الملة عادت تقاليد الجاهلية تزري بالمرأة وتخرج بها من حصن عفافها إلى إباحية لا نظير لها.

---

(١) الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك، عن أبي أمامة الباهلي.

(٢) الأصح كتابتها «توارك» وليس طوارق، وهي كلمة أمازيغية غير عربية ومعناها الأرض المسقية، ولا صلة بينها وبين طارق بن زياد الذي ينتمي إلى قبيلة نفزاوة من بربر البتر، بينما الطوارق «التوارك» المعاصرون هم أحفاد صنهاجة؛ أكبر قبائل بربر البرانس.

يروي المؤرخون وعلماء الاجتماع عن وضع المرأة البربرية الكثير.. مثل عادة إكرام الضيف؛ بأن تبيت معه إحدى نساء الأسرة، كما انتشر في ذلك الوقت نظام عجيب يسمى «المؤاخاة» ـ يشبه ما أُطلق عليه إعلاميًا في الوقت الحاضر «فتوى إرضاع الكبير». ـ وفيه تقوم المرأة بوضع دقيق مبلل بالزيت على ثديها فيأتي الرجل الغريب فيأكل من هذا العجين ليصبح بذلك ابنًا لها وأخًا لأبنائها، ناهيك عن انتشار حفلات الموسيقى والغناء المختلطة والتي يتلاقى فيها العشاق ويتم خلالها الاتفاق على الزواج أو ما دون ذلك من علاقات.. لا تظنني شطحت عن السياق لأكتب عن أوروبا الحديثة، ولعل عجبك يزول إذا ما علمت أن رقصة الفلامنكو الإسبانية الشهيرة أصلها بربري من صحراء المغرب، وليتك تستحضر إيقاعات موسيقى الراي القبائلية التي يتراقص على ألحانها الصاخبة الساحرة الشبابُ المعاصر في بقاع الأرض ليمكنك تصور الإطار الواقعي المحيط بالأحداث.

في خضم تلك الجاهلية الثانية ـ إذ عندما يذكر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم تعبير «الجاهلية الأولى» فذاك معناه أن هناك جاهلية ثانية وثالثة تطبق بظلامها كلما أعرض المسلمون عن دينهم ونقضوا عراه ـ وتحديدًا في عام ٤٢٧ هـ الموافق ١٠٣٥م يقرر أمير قبيلة جدالة الصنهاجية الخروج من دياره قاصدًا مكة المكرمة لأداء فريضة الحج بعدما مر وقت طويل قبل أن يفكر أحد قادة البربر في إحياء تلك الفريضة، لكننا لن نعجب إذا علمنا أن الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي كان رجلًا شهمًا شجاعًا ذا عقل راجح كما كان متمسكًا بما بقي له من علم ديني، وآية ذلك أنه كان مكتفيًا بتسع زوجات من الحرائر تفسيرًا لآية: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[1] والتي فسروها على أن المباح حاصل جمع الأعداد كلها فتصبح تسعة!! هكذا وصل الحال بأصدقائنا البربر نتيجة سياسات القهر والاستبداد والتمييز العنصري، غير أن أحداثًا مفصلية كانت في انتظار الأمير الحاج بعد عودته من رحلته الميمونة.

---

(١) سورة النساء، آية ٣.

حج مبرور

يتعجب كثيرون لإطلاق لقب «الحاج فلان» على من يقوم بأداء فريضة الحج ويتفاكه البعض متسائلًا: ولم لا يطلق على من يصلي أو يصوم لقب المصلي فلان أو الصائم فلان؟!

والحقيقة أن لقب الحاج له في التاريخ أصل؛ ففي الأزمنة السابقة على اختراع وسائل المواصلات الحديثة من سيارات وقطارات ثم طائرات كان القاصد لأداء فريضة الحج يحتاج عدة أشهر للانتقال من موطنه إلى بيت الله الحرام ذهابًا ومثلها إيابًا سائرًا في البرية راجلًا أو راكبًا دابته حتى يصل إلى مبتغاه، فعُدت تلك الرحلة بحق بمثابة رحلة عمر لا يرجع منها إلى وطنه قبل مرور عام أو عامين على الأقل هذا إن رجع، فهو يمر في الطريق إلى مكة بعدد من البلدان فيبقى فيها لأسابيع أو لشهور قبل استئناف رحلته، فإن كانت البلدة إسلامية ففيها مساجد وعلماء يجلس إليهم ليستمع وليتلقى العلم الذي ينقله من مستوى دراسي إلى مستوى دراسي أعلى، كلٌّ حسب اجتهاده.. بتعبير عصري يمكننا القول إن الدراسة الشرعية الأولية التي يتلقاها الشخص في موطنه استعدادًا لرحلة الحج تلحقها دراسة جامعية ذهابًا ثم دراسات عليا إيابًا يجيزه عليها العلماء، فإن حصل على لقب «حاج» فهو يشبه اللقب الأكاديمي الحالي كلقب دكتور مثلًا.

وكذا فعل الأمير الحاج يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي أدرك خلال رحلته لأداء الفريضة حقيقة الحال التي وصل إليها بربر صنهاجة والذي يتراوح بين جهل مطبق بأحكام الدين وخروج بالكلية عن الملة، فعقد العزم على استنقاذ نفسه وعشيرته من ظلمات الجاهلية، فعرج في طريق عودته على القيروان؛ العاصمة الثقافية لإفريقيا والتي

استقر بها من بقي من علماء السنة والجماعة بعد مذبحة المالكية حيث أسسوا مدرسة كبرى كان يتزعمها عند وصول الأمير الحاج رجل من خيرة علماء المذهب اشتهر بغزارة العلم الذي ارتحل شرقًا وغربًا لتحصيله من مصادره فدرس في أكبر جامعتين في العالم في وقته؛ «قرطبة» و«بغداد»، قبل أن يعود إلى القيروان ليتولى زعامة المدرسة المالكية فيجعلها قِبلة الباحثين والدارسين... ذاك هو الإمام أبو عمران الفاسي فقيه عصره الذي قدر الله أن يلقاه الأمير يحيى الجدالي فيحدثه عن أحوال قبيلته جدالة وسائر القبائل الصنهاجية مفضيًا إليه برغبته في أن يرسل معه أحد تلاميذه ليُعلم الناس أصول دينهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

لم يكن الإمام الفاسي ليتردد في مد يد العون للأمير الجدالي، بل إن واجبه الديني يحتم عليه أن يرسل معه من يدعو الناس للعودة إلى دين الله الحق، غير أن المفاجأة كانت في اعتذار جميع تلاميذه عن القيام بهذه المهمة في تلك المجاهل الصحراوية البعيدة عن العمران والتي لا يعرفون لغة أهلها الأمازيغية، ولما تعهد الأمير بحماية وإكرام من يذهب معه أجابه أحد المرشحين بأن أهل الصحراء وقد عادوا لعاداتهم الجاهلية فإنهم إن طالبهم أحد بخلاف ذلك قتلوه!

لم يجد الإمام الفاسي بعد رفض علماء القيروان القيام بالمهمة إلا أن يبعث برسالة مع الأمير الجدالي إلى واحد من قدامى طلبته الذي أصبح فقيه بلاد السوس المتاخمة لساحل المحيط الأطلسي بالمغرب الأقصى ويدعى وجاج بن زلوا من بربر لمطة إحدى فروع صنهاجة يطلب إليه فيها أن يرسل مع الأمير أحد تلاميذه العالمين العاملين ليقوم بدوره المأمول، وقد أحسن الإمام الاختيار كما أحسنه فقيه السوس إذ وقع اختياره على رجل ممن تزدان صفحات التاريخ بأسمائهم.. بل قل إن الإمام الفاسي وتلميذه اللمطي قد اجتهدا إلا أن الله سبحانه قدر لهذا الرجل العظيم.. عبد الله بن ياسين.. أن يقوم بدور من أعظم الأدوار في تاريخنا الإسلامي.

عبد الله بن ياسين الجزولي من قبيلة جزولة الصنهاجية.. بربري، أسمر، من جنوب الصحراء الغربية، ذو جسد ضامر قوي، سريع الحركة، ذكي، ذو مهابة وفطنة ووقار، عالم فقيه درس في المدرسة المالكية بالمغرب وارتحل إلى الأندلس زمن ملوك الطوائف

فبقي فيها سبع سنين يستزيد من العلوم قبل أن يعود للاستقرار مع وجاج بن زلوا على ساحل المحيط الأطلسي، وإذ ألقى فقيه السوس على عاتقه المهمة الثقيلة للدعوة داخل الصحراء هَبَّ الرجل ملبيًا غير وجل ولا متردد، متوكلًا على الله واهبًا نفسه وحياته لوظيفة الأنبياء والأولياء.. أن يُخرج الناس من الظلمات إلى النور.. مهمة تهون في سبيلها الحياة كلها.

خرجت قبيلة جدالة تستقبل أميرها الحاج يحيى وضيفه الكريم وما إن عرفوا أنه أحد علماء المالكية حتى التفوا حوله فرحين وأحاطوه بهالة من التوقير جديرة بحامل سنة رسول الله ﷺ فاطمأنت نفس ابن ياسين وشعر بيسر مهمته وبأنه سيمضي في ديار جدالة أيامًا مليئة بالخير في نشر تعاليم الدين وتدريس أحكام الشريعة، وقد قام الأمير الجدالي بحملة دعائية للشيخ الداعية أسفرت عن حشد أفراد القبيلة للاستماع إليه وتلقي العلم عنه، فبدأ في إلقاء الدروس على الناس وتذكيرهم بالآخرة وترغيبهم في الجنة وترهيبهم من النار فتأثر الناس به وتكاثروا من حوله، واتسع نطاق شهرته حتى بلغ أرض لمتونة المجاورة فوفد منها المريدون والأنصار ثم خرج إليهم ابن ياسين يصحبه الأمير الجدالي حتى إذا اقترب من مضارب لمتونة نزل الأمير عن جمله وأمسك بزمام جمل ابن ياسين إجلالًا له وخرجت القبيلة لاستقباله وعلى رأسهم أميرها، وأخذ ابن ياسين يتنقل بين جدالة ولمتونة يلقي دروسه الشرعية والناس منصتون.

حتى ذلك الوقت لم يكن الداعية قد خرج بدروسه عن تعليم الناس شعائر العبادات من صلاة وصيام وزكاة فأطاعه أكثرهم، إلا أنه عندما حدثهم عن ضرورة تطبيق أحكام الشريعة على سائر أمور حياتهم أجابوه قائلين: «هذا أمر لا يلزمنا ولا ندخل تحته».

ورثة الأنبياء

يبقى الناس مستمعين مستمتعين بخطب ودروس الوعاظ والدعاة طالما اقتصرت على الرقائق كالتذكير بالآخرة والترغيب في الجنة والتخويف من النار وهم يجلسون مطمئنين يحركون رءوسهم تأثرًا وربما طفرت من أعينهم العبرات ثم تنتهي الخطبة أو الدرس فيمضي كلٌّ إلى غايته حتى الموعد التالي الذي يمثل لهم نزهة روحية وفرصة للسمو النفسي بعيدًا عن متاعب الحياة، وقد يبدأ بعضهم بالتململ إذا ما اقترح الداعية برنامجًا للعمل ينقل الناس من مجرد مستمعين إلى مطبقين للعبادات كالصلاة والصيام والزكاة فيتفلتون تباعًا ويصمد من سكن في قلبه إيمان ينقله من متبطل ساكن إلى فاعل متحرك، فإذا انتقل الداعية من النزهة في بستان العبادات إلى الحرث في حقل العادات الاجتماعية المتأصلة كتلك المتعلقة بضوابط الاختلاط أو الملبس أو الإقلاع عن بعض العادات الضارة التي تناقض نظافة الإسلام وسموه زاد التفلت وقل عدد الصامدين، فإذا ما صارحهم الداعية بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية على كل مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية سواء المتعلقة بالفرد أو بالجماعة وأن هذا التطبيق الشامل ليس أمرًا اختياريًا أو انتقائيًا إنما هو الجوهر الحقيقي لشهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فلا يقوم الإسلام إلا به وتظل الجاهلية جاثمة أو تعود لترخي سدولها بدونه ولو رفع الناس شعارات الإسلام عالية وذلك مصداقًا لقول الله سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا

﴿ مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[1] ولقوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[2]، حينها تكون الطامة الكبرى.

لذا فإن أكثر الدعاة يتجمد عند مرحلة أو أخرى من مراحل الدعوة لا يجاوزها ضنًا بمكانته عند الناس أن تتزعزع وإشفاقًا من أن يفقد أتباعه أو أن تتعرض له السلطة المستفيدة من نظم الجاهلية بسوء، يستوي في ذلك من تضخمت ذاته فغلبت مراقبته لها على مراقبته لربه، أو من غلب خوفه من الناس توكله على مولاه سبحانه وتعالى، أو من زين له الخوف والطمع تزييف الحقائق والكذب على نفسه ثم على الناس بادعاء التيسير عليهم لاجتذابهم ثم لايتحرك بعد ذلك قيد أنملة وإنما يمضي في طريقه مطمئنًا إلى التفاف الناس حوله ثم إلى ترحيب أعداء الدين بمنهجه حتى يصبح نجمًا يشار له بالبنان ثم ينعم برفاهية تلهيه وتنسيه الحقيقة الأزلية الثابتة في كتاب الله من أن كثرة الأتباع لا تعني أبدًا صحة المنهج ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[3]، ومن أن أنبياء الله الذين جاءوا أقوامهم بالحق ـ لا شبهة فيه ـ لم يُقابَلوا بترحاب ولا بكثرة أتباع ولا بطرق مفروشة بالورد، وإنما بالتكذيب وبالقتل وبالتشريد ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[4]، وأن سنة الله الماضية في خلقه أن يكذّب الناس رسل الحق ويؤذوهم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ ﴾[5]، فيصبروا ويصابروا حتى ينتصروا بعد عناء شديد ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[6]، لذلك أمر الرب تبارك اسمه رسوله ﷺ بالتذرع بالصبر؛ لأن الدعوة إلى الله ليست عملًا سهلًا قريب الثمرات وإنما هي حرث شاق في

---

(١) سورة النساء، آية ٦٥.

(٢) سورة المائدة، آية ٥٠.

(٣) سورة يوسف، آية ١٠٣.

(٤) سورة البقرة، آية ٨٧ .

(٥) سورة الفرقان، آية ٣١ .

(٦) سورة الأنعام، آية ٣٤.

نفوس صحرتها الأهواء وقزمت أشواقها تطلعات صغيرة إلى مكاسب دنيوية تافهة ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1].

ينتقل هؤلاء الدعاة ـ النجوم ـ خوفًا من الناس وطمعًا في عطائهم المادي أو المعنوي من خانة العلماء إلى خانة خبراء التنمية البشرية إذا ما ظهروا في مجتمعات قد استقر فيها الإسلام وحُكم فيها بشرع الله، أو إلى خانة المزورين لحقائق الدين إذا ما وُجدوا في مجتمعات لم تخرج بعد من جاهليتها إلى الإسلام أو ارتدت إلى الجاهلية كما حدث في الغالبية العظمى من المجتمع البربري وبخاصة قبائل صنهاجة عندما وصلها الشيخ عبد الله بن ياسين، ولقد مَنَّ الله سبحانه على الشيخ الداعية بتلك الكاريزما التي مكنته من حشد الأنصار في وقت قصير، فقد كان خطيبًا مفوهًا عالمًا جذابًا حلو المعشر والحديث، وقد استخدم في دعوته اللغتين العربية والأمازيغية معًا في مهارة تتيح لمختلف الطبقات الثقافية أن تتفاعل معه فالتف حوله أفراد قبيلتيْ جدالة ولمتونة وذاع صيته بين القبائل الصنهاجية الأخرى حتى توافد لسماعه طلاب العلم من كل مكان، ولقد كان في مقدور ابن ياسين أن يتجمد عند مرحلة من الدعوة لا تصطدم بالأعراف ولا بالنظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة مما يتيح له استمرار هذا التواصل حتى يصبح نجمًا لامعًا في سماء صنهاجة ويهنأ بمكانة راقية في المجتمع يتيحها له التفاف الجمهور حول فقيه المالكية الأمازيغي؛ وهي المكانة التي وضعته وقتها فوق أمراء القبائل، وقد كان في مقدوره أن يخدع نفسه بأن هذا هو غاية ما يمكن أن يصل إليه مع هؤلاء البربر الخارجين عن ملة الإسلام وأنه يكفيه فخرًا أن جعلهم يؤدون الصلاة في أوقاتها الصحيحة ويصومون رمضان ويكتفون بأربع زوجات ويُحرمون بعض الحرام ويُحلون بعض الحلال في صيغة توافقية ترضي الجميع ولا تجعله يخسر مكانته أو يصطدم بهم منذ بداية الطريق، أفتراه فعل؟

لا.. فمن كان له من قوة الإيمان ومتانة العلم وصدق الإخلاص وعلو الهمة وتوحيد الخوف والرجاء مثل ما لابن ياسين لا يمكن أن يُتصور منه أن يزيف على الناس حقيقة دينهم وأن يرضى منهم بما لم يرض به الله ورسوله، وإنما هو الدخول في الإسلام كله أو

(١) سورة الأحقاف، آية ٣٥.

نقضه كله، فلا انتقاء ولا تزييف ولا خلط بين دين الله وأديان البشر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾[1]، هؤلاء هم العلماء الحقيقيون الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[2] فهي وراثة الدعوة والمنهج والمعاناة حتى يكون الدين كله لله، لذا فما أن أدرك أن القوم يرفضون تطبيق أحكام الشريعة حتى واجههم بصراحة وبحزم وبعنف أيضًا.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٠٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، من حديث أبي الدرداء.

دعوة الحق

غلبت الطبيعة الأمازيغية الحادة والمتصلبة على الفريقين سواء في ذلك أفراد قبيلة جدالة الذين رفضوا ما دعاهم إليه ابن ياسين ـ بعد فترة التوعية الأولى ـ من تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية التي نزلت لتحكم حياة الأفراد والجماعات في كل نواحيها دون استثناء، أو الفقيه المالكي ذاته الذي قابل تصلبهم بتصلب مماثل وجابه عنفهم بعنف مضاد، ولم يجد في موقفه هذا عونًا من الأمير الحاج يحيى بن إبراهيم الذي غلبه المرض، وما لبث أن توفي تاركًا عبد الله بن ياسين والفئة القليلة التي آمنت بدعوته في مهب الريح.

ظهر بوضوح ـ منذ أن انتقلت الدعوة من مرحلة دغدغة الحواس الإيمانية لجمهور المستمعين إلى مرحلة العمل الجاد لإقامة دين الله في الأرض ـ أن لوبي أصحاب المصالح سوف يقاوم بشراسة أية خطوة عملية تؤثر على مكتسباتهم التي تحصلوا عليها من نظام جاهلي تغلغل في النفوس وما لبث أن عاد يطبق بظلامه على الجميع، فمن تراه منهم يقبل طواعية أن ينزل عن سلطاته القبلية ليتساوى مع أفراد ينظر إليهم باستعلاء إعمالًا لشريعة العدل والمساواة في الحقوق والواجبات؟ ومن تراه منهم يوافق على التخلي عن أرباحه الوفيرة التي تحصَّل عليها من إقراض الناس بالربا أو الاستيلاء على أموالهم أو المتاجرة فيما حرم الله تعالى من خمر وغيره؟ ومن تراه يرضى بكبح جماح غريزته التي أطلقها النظام الجاهلي من عقالها ليعود يرفل في أغلال الفضيلة؟ ومن تراه يوافق على تطبيق الحدود فتُقطع يد السارق ويُجلد شارب الخمر... إلى آخر ذلك من الأحكام

الإسلامية التي نبذوها وراء ظهورهم واستبدلوا بها أحكامًا عرفية شرَعوها لأنفسهم وأعادوا بها سيرة الأجداد قبل أن يشرق عليهم نور الإسلام قبل نحو ثلاثة قرون؟

لذا فما أن توفي الأمير الحاج الذي استضاف ابن ياسين وتكفل بحمايته حتى سارع لوبي أصحاب المصالح بطرده خارج جدالة فتلقاه تلاميذه من قبيلة لمتونة بالترحيب والتفوا حوله، ولكن ما لبث الأمر أن تكرر في لمتونة فما أن طالبهم ابن ياسين بتطبيق شريعة الله حتى انفضوا من حوله تاركين إياه وفئة قليلة ـ كسنة الله الدائمة ـ في مواجهة لوبي أكثر شدة وبأسًا وأحرص على مكتسباته الظلامية من ذلك الذي خلفه وراءه في جدالة.

لم يكن أمام ابن ياسين أي خيار، فإما الحق وإما الباطل ليس بينهما امتزاج أو صيغة توافقية أو حل يرضي جميع الأطراف ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[1]، هكذا حذر الرب تبارك اسمه سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ، فما ظنك بورثة الأنبياء لو مالوا وفرَّطوا وزينوا وزيفوا؟ ولقد ثبَّت الله تعالى بفضله شيخنا المالكي الجزولي الصنهاجي فما مال عن الحق ولا ساوم وإنما صمد في مواجهتهم مكتفيًا بالفئة المؤمنة فأنشأ بهم جماعة أطلق عليها اسم «جماعة أهل الحق» تكونت من بعض الشباب والعبيد والفقراء والمستضعفين الذين اعتزلوا قومهم وبنوا في قلب لمتونة شبه مدينة خاصة تضمهم أطلقوا عليها «أرتنني»، وحرَّموا على أنفسهم أكل ذبائح الناس أو التعامل معهم، ثم أخذوا يخرجون عليهم بين حين وآخر يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر بنبرة حادة ما لبثت أن انقلبت عنفًا وصدامًا.. فبدأت المعارك بين الجانبين وسالت الدماء وضربت الفتنة أطنابها وجماعة أهل الحق صامدة في أغلبها إلا قليلًا يتفلتون بين الحين والآخر تحت ضغط قسوة الواقع، أو تذبذب الإيمان بجدوى ما يفعلون، أو انهزامًا أمام سلطة سياسية قوية وممكّنة، وبمرور الزمن انفض آخرون من حول ابن ياسين فتضاءل عدد أتباعه إلى أفراد قلائل لا قِبل لهم بالاستمرار في الصدام

---

(١) سورة الإسراء، الآيات ٧٣ ـ ٧٥.

والمواجهة إلى ما لا نهاية حتى بدا للمراقب من بعيد أن تلاميذ الإمام الفاسي في القيروان كانوا على حق حين اعتذروا ـ قبل نحو خمسة عشر عامًا ـ عن مهمة الدعوة في الصحراء، إلا أن الداعية البربري ابن ياسين بدا في صلابته وكأنه قرر الوقوف بمفرده أمام طوفان هائل من حملات الرفض والتشويه والإيذاء وتخلِّي الأتباع، وفي تلك الأثناء وصلت إلى الداعية من بعيد رسالة زلزلت كيانه.

من ساحل المحيط الأطلسي أرسل وجاج بن زلوا فقيه السوس ـ الذي وصلته أنباء جماعة أهل الحق ـ برسالة شديدة اللهجة إلى أميرهم ـ وتلميذه القديم ـ عبد الله بن ياسين يعاتبه فيها على أسلوبه في الدعوة الذي أجج نيران العنف في لمتونة ويقول له في نهاية الرسالة: «ما هكذا فعل رسول الله ﷺ»!

قرأ عبد الله بن ياسين رسالة أستاذه الفقيه المالكي بينما كان في شدة الضيق والكرب وقد انفض من حوله أكثر أعضاء جماعته وهدم أهل لمتونة مدينتهم الفاضلة «أرتنني» وهددوه بالقتل إن لم يرحل عنهم، ولم تك كل تلك الأحداث لتفُت في عضده إلا أن رسالة ابن زلوا زلزلت بالفعل كيانه ولم يدر بماذا يجيب ولا لماذا تخلى عنه الفقيه العظيم الذي تتلمذ على يديه، كان ابن ياسين ذاهلًا يطرح على نفسه العديد من الأسئلة بينما تمكنت مجموعة من طرده نهائيًا من لمتونة فخرج وحيدًا جريحًا ممزق الثياب تسيل من رأسه وقدميه الدماء ولا يحمل من الزاد سوى بضع تمرات أعطاها له شاب من جماعته القديمة استطاع أن يخترق الحصار ليودعه الوداع الأخير.

كانت جراح الهزيمة تنزف من صدره وهو يمضي في طريقه مرددًا: «لقد تخلى عنك الجميع يا ابن ياسين»، وقد روت دماء قدميه الحافيتين رمال الصحراء بينما لم يجد من حوله ماء يرويه ولا ظلًا يأوي إليه في الهجير فوقف متطلعًا لما وراءه.. تيمم برمال الصحراء الطاهرة ثم وقف يصلي، كان الحر لافحًا يخنق الأنفاس وقد لاحت من بعيد بوادر عاصفة رملية آن أوانها، أطلق العنان لدمع غزير فاض من عينيه ورفع يديه ضارعتين إلى السماء وهو ينادي وحيدًا في البرية: «اللهم إن لم تكن غاضبًا عليّ فلا أبالي».. لبث مليًا حتى مالت الشمس قليلًا عن كبد السماء ثم قام فمضى خفيفًا مسرعًا نحو الجنوب.

المسيرة والمسار

تقع قبيلتا جدالة ولمتونة الصنهاجيتان في الصحراء الغربية عند التقاء جنوب المغرب بشمال موريتانيا، فلما غادرها عبد الله بن ياسين وحيدًا طريدًا جريحًا سار ميمماً وجهه صوب الجنوب، لم يك وقتها يعرف إلى أين يذهب ولا كيف يكسب عيشه ولم يك في نيته أن يعود أدراجه إلى بلاد السوس ليقضي ما تبقى من عمره في تدريس الفقه المالكي على ساحل المحيط الأطلسي كما كان يفعل قبل رحيله إلى الصحراء بصحبة الأمير يحيى ابن إبراهيم منذ خمسة عشر عامًا، إذ كيف يتأتى له بعد أن عاين بنفسه وعايش طويلًا تلك الجاهلية التي أطبق ظلامها على قبائل صنهاجة أن يقنع بتدريس الأحكام الفقهية التي لا تصلح إلا لقوم اعتنقوا بالفعل الإسلام الصحيح ورضوا بأن يخضعوا لأحكامه التي تُطبق عليهم وفقًا للاجتهادات الفقهية، وإلا لأصبح الأمر مجرد عبث فكري لا طائل من ورائه أو إهدارًا للوقت في بحث ومناقشة تفصيلات نظام يرفض الناسُ أصلًا الانضواء تحت سلطانه.

بعد سنوات طويلة من التجربة المريرة أدرك الداعية ابن ياسين أن مصارحة الناس بأنهم خرجوا بالفعل من ملة الإسلام ودعوتهم إلى العودة إليها مرة أخرى هي المهمة الوحيدة الملقاة اليوم على عاتقه، وهي المهمة التي اختاره الرب سبحانه لإنجازها داخل الصحراء وأنه لن يتخلى عنها حتى يعود نهار الحق فيشرق على هذه البقعة المظلمة التي تمتد فيها جذوره أو يهلك دون ذلك، لذا فقد قادته قدماه إلى السير عكس اتجاه الحضر واستقرار العلماء شمالًا فجد السير نحو الجنوب مسرعًا كأنما ليهرب من إغواءات الدعة والراحة وخداع النفس.. هناك...

طال المسير بابن ياسين يستريح قليلًا ويواصل كثيرًا حتى اجتاز منطقة الصحراء وبلاد موريتانيا كلها، لم تك قد تبلورت في ذهنه خطة محددة للمستقبل لكنه كان عازمًا على إكمال مسيرته حتى نقطة معينة تصلح بداية للانطلاق من جديد، وفي انفراده بنفسه وتفكره في ملكوت الله ومراجعته لتجربته الدعوية السابقة بإيجابياتها وسلبياتها وتأمله في رسالة وجاج بن زلوا التي حفظها عن ظهر قلب وثقته في علم وإخلاص أستاذه الفقيه التي أطفأت بمرور الوقت اشتعال غضبه حين استشعر لأول وهلة نصرته لأهل الباطل عليه، في غضون ذلك كله بدأت الرؤية تتضح أمامه أكثر فأكثر.

كان يقضي نهاره باحثًا عن صيد يقتنصه لطعامه ويقضي ليله متنسكًا متعبدًا قائمًا وساجدًا يسأل الله الثبات والتوفيق ويسأله المعية والسداد ويسأله إخلاص القول والعمل ويسأله أن ينير الطريق أمامه؛ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] فاستجاب له ربه.

يتمسك الدعاة الربانيون بدينهم لا يرضون عنه بديلا، لا يُزيفونه ولا يزينونه بالكذب ولا يرضون من الناس بما لم يرض به الله ورسوله، لكن كثيرًا منهم ـ رغم الإخلاص وصدق النية والاستعداد للتضحية ـ يتناسون حقيقة أن هذا الدين كما أنه رباني فمنهج الدعوة إليه لا بد أن يكون ربانيًا بالمثل، لذا جاءت رسل الله لا لتنقل تعاليمه فقط إلى الناس وإنما لتكون شخوصًا واقعية تتحرك بهذه التعاليم لتصبح نماذج صالحة للاقتداء في كل وقت، ومن هنا كانت العبارة الأخيرة في رسالة وجاج بن زلوا لعبد الله بن ياسين: «ما هكذا فعل رسول الله ﷺ»، نعم يا عبد الله فتلك لم تك مجرد جملة إنشائية وإنما كانت صيحة تنبيه للغافلين عن منهج الحق، فلقد جاء محمد ﷺ بالدين وجاء أيضًا بالمنهج فلمَ اتبعت الدين وغفلت عن المنهج؟ وكيف يكون لك أن تدعو الناس إلى حكم الله عن طريق آخر غير طريق الله؟ أهكذا تكون الدعوة أيها الغافل؟ أهكذا تُضَيِّع السنين بلا طائل بينما الطريق واضح جلي والنموذج حي ما زالت آثار خطواته بين مكة والمدينة ترسم سبيلًا للدعاة عبر كل العصور؟

كانت الأسئلة تتقاطر على ذهن ابن ياسين والإجابات تقفز جلية واضحة لا غبش

---

(١) سورة غافر، آية ٦٠.

فيها ولا غموض، ما الذي فعله رسول الله ﷺ والمؤمنون الأوائل في مكة حين كانوا قلة مستضعفة؟ لقد تشبثوا بدينهم.. نعم «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»[1]، ألم يك ذلك رد النبي ﷺ على قريش حين شكته إلى عمه قائلين: لقد سفه أحلامنا وسب آلهتنا وكفّر آباءنا؟ لقد صمد النبي والذين معه فلم يهادنوا ولم يداهنوا ولم ينقصوا من حقيقة الإسلام بمقدار ما يرضي المكذبين ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾[2] نعم.. بما تؤمر من ربك كله دون نقصان.

لكنهم في الوقت ذاته لم يشتبكوا في صراع مع قومهم وإنما امتثلوا لأمر الله تعالى لهم في تلك المرحلة التي يطبق فيها ظلام الجاهلية على المجتمع وتختلط الحقائق في أذهان الناس ويصبح للباطل قوة ويَضْحَى المؤمنون بربهم قلة قليلة مستضعفة ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾[3] نعم.. كفوا أيديكم ولو آذوكم وقاتلوكم وأخرجوكم، لماذا وما كانت حميّة العرب القبلية لتقبل الضيم وتلقى الإهانة والإيذاء بغير رد؟ كي لا يختلط الحق بالباطل في أذهان الناس ويبدو الأمر كما لو أن السلطة الشرعية تردع قلة من الخارجين عليها أو المتصارعين معها على الحكم تطلعًا منهم للسلطة لا لتطبيق شرع الله كما يدعون.

لا مهادنة للجاهلية ولا مسالمة أو تعاون، ولا مواجهة أو صراع معها قبل اكتمال البناء، ذاك كان منهج الدعوة في المرحلة المكية حيث معطيات الواقع تشابه تلك التي واجهها ابن ياسين طوال الأعوام الماضية، وتلك المعطيات هي التي حددت منهج الدعوة الإسلامية عبر مسيرتها من استضعاف وابتلاء وتمحيص إلى تمكين على تخوف ثم تمكين على قوة ثم انتشار في الأرض، لذا كان تحديد طبيعة المرحلة ضروريًا ضرورة سلامة تشخيص المرض قبل تعاطي العلاج وهو ما أخطأ فيه الداعية فضيَّع أعوامًا طوالا بلا فائدة.

حين وصل ابن ياسين إلى أقصى جنوب موريتانيا بدا الطريق أمامه واضحًا فعزم على إكمال المسيرة وتعديل المسار.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ـ المجلد الثاني.

(٢) سورة الحجر، آية ٩٤.

(٣) سورة النساء، آية ٧٧.

بين «أرتنني» ودار الأرقم

يفصل نهر السنغال الواقع عند الساحل الإفريقي الغربي - وفقًا لعلماء الإنثربولوچي - بين الجنس الأبيض (البربري) على الضفة الشمالية والجنس الأسود (الزنجي) على الضفة الجنوبية للنهر، ويرى البعض أن كلمة «سنغال» هي تحريف لغوي لكلمة «Asnaga» وأصلها «صنهاجة»، ولعلنا ما زلنا نذكر أن الفاتحين المسلمين بعد استقرارهم في المغرب قبل ثلاثة قرون اتجهوا شمالًا لفتح الأندلس بدلًا من الاتجاه جنوبًا صوب السودان، لذا فإنه حتى هذه اللحظة التاريخية التي نعاينها كانت البلاد الواقعة إلى جنوب موريتانيا قائمة على ديانتها الوثنية لم تصلها الدعوة الإسلامية بعد، بينما خرجت قبائل الشمال الصنهاجية عن ملة الإسلام متمسكة بشعاره الخارجي تاركة حقيقته كما أوضحنا سابقًا، تُرى ألهذا السبب توقفت مسيرة عبد الله بن ياسين عند هذه البقعة الجغرافية التي تفصل بين عالمين: زنجي/ بربري، وثني/ مرتد؟ أتراه لذلك قرر أن يتخذ مصب نهر السنغال منطلقًا جديدًا لدعوته الإيمانية ولحركته السياسية؟

عندما وصل ابن ياسين إلى مصب نهر السنغال كانت المياه تتعرض لظاهرة الجزر فأدى ذلك إلى انحسارها عن جزء من اليابسة أشبه بالجزيرة المحاطة بالماء من كل جانب إلا أنه - في ذلك الوقت - كان ضحلًا حتى يمكن الخوض فيه سيرًا على الأقدام، وكأنما أدركت فراسة الداعية أن تلك الجزيرة المحاطة بالماء الذي سيفيض عما قليل وفقًا لظاهرة المد فيتركه وحيدًا بداخلها هي خير ملاذ للاختلاء بالنفس والتزود بوقود التنسك والزهد اللازم للحركة الدعوية فأسرع باجتياز الماء الضحل دالفًا إلى الجزيرة الصغيرة يحوطها ماء عذب لسقياه ولصيد البحر، وبها أشجار قد نبتت دون زارع لطعامه

ولدوائه فسجد شاكرًا لله ثم بدأ يستشعر ما في الخلوة مع الله من مذاق لا يعرفه إلا من تزود منه والتذ به، كانت جدائل الشمس الذهبية تتباين ألوانها تباعًا عند المغيب كاشفة عن قدرة الخالق العظيم جل جلاله تودع نهارها بالاختباء بين ذراعي المحيط الممتدة عبر الأفق الغربي، تعجب في قرارة نفسه من جحود الإنسان لخالقه وعدوله عن منهجه القويم الذي ارتضاه لعباده كي يتحرروا من أسر شهواتهم ومن عبادة أمثالهم من العبيد الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا يهتدون سبيلا.. كي يتسقوا مع فطرتهم ومع هذا الكون بديع التناسق لا يشوهه ولا يخل بنظامه سوى ذلك المخلوق الجاحد الذي يعاني ويسبب المعاناة لغيره من المخلوقات حين ينحرف عن الصراط المستقيم إلى سبل متفرقة يتخبط فيها فلا يستقر ولا يهنأ إلا بعودة إلى طريق الله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[1]..

ما أبدع الحياة في معية الله، هكذا بدأ الداعية الأول ﷺ وحيدًا متنسكًا ليتزود بوقود الدعوة ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[2]، في ليل الخلاء حيث يخيم الهدوء ويسكن الكون كله تحت ظلام دامس تسطع الأنوار من قلوب موحدة بالله متعلقة به ملتجئة إليه لا تروم عنه بديلا.. لا ترضى سواه ربًّا وإلها.. تنشد المدد الذي يعينها على وحشة الطريق وتكذيب المكذبين وإعراض المعرضين واستهزاء المستهزئين وإيذاء المجرمين ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[3] إنه الجهاد الشاق منذ اللحظة الأولى ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾[4]، وهي المواجهة القادمة لا محالة؛ لذا كان لا بد من ابتلاء الداعية القائد كي يحمل الدعوة.. الحمل الثقيل.. فأنى له أن يحملها قبل اجتياز الاختبار الإلهي؟ القائد القدوة، هو اللبنة الأولى في البناء ثم تأتي من بعد ذلك بقية أحجار الأساس.. قاعدة البناء التي لا يجوز التهاون في انتقائها واختبار صلابتها مرة بعد أخرى.. التي لا يجوز الترخص في

---

(١) سورة طه، آية ١٢٤.
(٢) سورة المزمل، الآيات ٢ ـ ٦.
(٣) سورة المزمل، آية ٥.
(٤) سورة التوبة، آية ٤٢.

مكوناتها طمعًا في الكثرة العددية لكيلا يؤثر ذلك على متانة الأساس.. ثم تأتي سائر اللبنات، التوسع الجماهيري الذي يجوز الترخص في مواصفاته تبعًا لمرحلة البناء.

ها هو القائد قد صهرته وأنضجته تجربة دعوية طويلة قاسية ودامية، ولكن أين القاعدة الصلبة التي سيقوم عليها البناء؟ لقد انفض الجميع.. في الغربة الأولى انتقلت الدعوة من غار حراء إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم حيث كانت اللقاءات بين القائد المربي وطلائع الدعوة.. الخامات الصالحة المنتقاة.. الأساس الصلب للبناء.. غرس اليد الكريمة التي تلقت العقيدة من نبع صافٍ وتمثلت لها حية في شخصية نموذجية أُعدت للاقتداء، فأين تلك القاعدة في الغربة الثانية؟ إنها العجلة والترخص في الانتقاء تلك التي أسفرت عن هزيمة ساحقة لجماعة أهل الحق وعن التباس في الحقائق وعن ازورار عن المنهج... لم تكن مدينة الجماعة «أرتنني» تطبيقًا سلبيًا لنموذج «دار الأرقم» فقد كانت تستقبل كل الراغبين في الانضمام للجماعة دون انتقاء ودون اختبار لذا فلما أن جاءت الضربة الحقيقية حتى انفضوا بمثل ما تجمعوا ولو استمع إليهم ابن ياسين لأغروه بمهادنة القوم ومداهنتهم والتعاون معهم ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[1] فتقع بينه وبينهم مساومة تخرج بدين الله عن حقيقته إلى صيغة ترضي الطرفين المتصارعين لكنها بأي حال لا ترضي الله ورسوله، ذاك هو الفارق بين منهج ومنهج.. بين الجيل الأول وجماعة أهل الحق.. بين دار الأرقم ومدينة أرتنني.

كلما أوغل الليل تلألأت أنوار اليقين داخل قلب ابن ياسين، أطال القيام فلما أن حان وقت السحر جلس يستغفر ربه ثم تساءل: أمن شمال النهر أبدأ أم من الجنوب؟ هاك يا رب الداعي فأين المجيبون؟ تمثل نبي الله إبراهيم ﷺ وحيدًا في واد غير ذي زرع إذ أمره ربه أن يؤذن في الناس بالحج فقال: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فأوحى له الله: ناد وعلينا البلاغ.

تردد رجيع صوته في الجزيرة الصامتة مؤذنًا في خشوع لصلاة الفجر: الله أكبر.. الله أكبر، وفي الأفق لاحت خمسة أشباح غائمة تحث السير في اتجاهه.

---

(١) سورة القلم، آية ٩.

الرباط

كان الرجال الخمسة قد خرجوا من ديار لمتونة متعقبين آثار عبد الله بن ياسين، عاقدين العزم على ألا يعودوا إلا بصحبته أو فليذهبوا معه حيث شاء، كانوا شبابًا قويًا صالحًا من جماعة أهل الحق، صمدوا مع إمامهم حتى تفرقوا عنه بعد أن بلغ العسف والاضطهاد مداه، فلما أخرجه القوم شعروا بالندم لتخليهم عنه وهو الذي أوقف حياته ليخرجهم وقومهم من الظلمات إلى النور، لذا فقد تعاهدوا فيما بينهم على اقتفاء أثره ونصرته ولو فقدوا أرواحهم في سبيل ذلك، فتركوا أموالهم وأهليهم وخرجوا يجدّون في طلبه، وإذ بهم وقد انداح الليل الطويل يسمعون صوته العذب الشفيف الحبيب يؤذن لصلاة الفجر، تبادلوا النظرات غير مصدقين لكن صوت الإمام انطلق في سكون الجزيرة ينادي: حي على الصلاة.. حي على الفلاح.. فما عاد لديهم شك في أن الله هداهم إلى بغيتهم فحثوا السير نحوه وقد لاح لهم على البعد شبحًا غائمًا قائمًا وحيدًا في الخلاء... لك الله يا ابن ياسين، أترفع الأذان في الخلاء حيث لا مخلوق يسمعك؟ لكنك يا إمامنا قد أسمعت سميعًا عليمًا قادرًا فبلّغ نداءك إلينا نحن الخمسة الخارجين في سبيل الله وإلينا نحن المتلقين من وراء القرون تلك الومضة الساحرة كبريق ألماسة فريدة تزين عقد تاريخنا المجيد.

وكم كانت فرحة اللقاء رطبة ندية فتعانقوا في فرح واستبشار وقد لاحت أولى تباشير النصر بتلك المحبة وبذلك الولاء الذي لا بد جامع بين القائد وقاعدة البناء.. اللبنات الأولى.

كان قد جمع بعضًا من أفرع الشجر اليابسات وقليلًا من القش الملقى هنا وهناك

فصنع منها ملجأ يقيه الحر نهارًا والبرد ليلًا، واعتزم أن يكمله بما هو متاح من مواد البناء حتى يصنع منه رباطًا في سبيل الله أشبه بالأربطة الإسلامية الشهيرة التي انتشرت على سواحل الشمال الإفريقي المطلة على البحر المتوسط لصد غارات البيزنطيين وتلك التي أقامها أهل السنة بعد مذبحة المالكية على يد الشيعة الفاطمية، وكانت ثقافة «الرباط» قد أصبحت إحدى مفردات الثقافة المغاربية منذ الفتح الإسلامي حيث انتشرت على ثغور الشمال الإفريقي من الإسكندرية حتى المحيط الأطلسي لصد المغيرين على بلاد المسلمين من جهة البحر، وفي التاريخ والتراث الشعبي المغاربي تبرز حكايا أهم الأربطة الإسلامية وأشهرها على الإطلاق؛ رباط عقبة بن نافع الفهري في شمال القيروان، ثم رباط عبد الله بن ياسين.

والأصل اللغوي للرباط أنه لجام الخيل، لكنه أخذ اصطلاحًا معنى يتسق مع الجهاد إذ يقول الله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[1] فعاد هنا على الاستعداد للقاء العدو بالتسليح، كما اتسع معناه ليشمل مجمل العمل الجهادي فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾[2]، ويقول الرسول ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»[3]، ومع أن المرابطة تتعلق بكافة أشكال الجهاد سواء على الثغور أو داخل المدن فإنها ارتبطت أكثر بأعمال الحماية التي يتولاها الجنود على الثغور الساحلية المهددة بالغزو البحري الذي لم يكن الفاتحون الأولون من المسلمين قد أجادوا فنونه بعد، وبمرور الزمن أخذ الرباط معنى أوسع إذ شمل إلى جانب الأعمال العسكرية أنشطة تعبدية وثقافية واجتماعية خاصة إبان اضطهاد الفاطميين لعلماء السنة إذ فر من بقي منهم بعد المذابح على قيد الحياة إلى الثغور، وأنشأوا بها عدة مدارس فقهية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي أطلقوا على كل منها «رباط»، وأهمها رباط القيروان ورباط سوسة ورباط ماست وهو رباط وجاج بن زلوا الذي وفد إليه من الصحراء عبد الله بن ياسين وتعلم فيه فشكّل

---

(١) سورة الأنفال، آية ٦٠.

(٢) سورة آل عمران، آية ٢٠٠.

(٣) متفق عليه، عن سهل بن سعد.

نظامه الداخلي أحد المكونات الثقافية التي واكبت خطواته لإعادة القبائل البربرية إلى الإسلام.

أخذ الرجال الخمسة يعملون مع ابن ياسين لإكمال بناء الرباط الذي سيضمهم جميعًا ليستكملوا ما بدأوه في «أرتنني» وليتلقوا العلم الشرعي عن إمامهم في إطار تطبيق حازم لشرع الله على كل تفاصيل حياتهم، وقد بدا لهم الأمر وكأنهم يولدون من جديد، وحرص ابن ياسين على تأكيد هذا المعنى وهو يعلمهم آيات الله وسنة رسوله ﷺ فيتعمق لديهم الشعور بأنهم يعايشون التجربة الإسلامية الأولى حية طازجة، وأريد هنا ـ قبل أن أستطرد في بيان نظام المرابطة عند ابن ياسين ـ أن ألقي الضوء على أمر شديد الأهمية؛ وهو ذلك الخطأ الذي وقع فيه من تناولوا بالبحث تلك المرحلة التاريخية، إذ يكاد الباحثون يُجمعون على أن الرباط نشأ عام ٤٣٣هـ، والحقيقة أن ابن ياسين دخل جزيرة نهر السنغال التي أنشأ بها رباطه بعد خروجه من لمتونة أي عام ٤٤٣هـ، أما من يُقر من المؤرخين بأن تاريخ بناء الرباط هو عام ٤٤٣هـ فإنه يذهب إلى أنه بناه في ديار لمتونة بمساعدة أميرها يحيى بن عمر، وهذا الالتباس الشديد الذي يحيط بواقعة نشأة الرباط يرجع في رأيي إلى عدم الإلمام بمنهج دعوة ابن ياسين الذي أدى إلى الخلط بين مرحلة لمتونة وبناء «أرتنني» وبين مرحلة مصب نهر السنغال وبناء الرباط، فاختلاف المنهج هو الذي يحدد تاريخ البداية، وإذا كان مفهومًا أن يطلق البعض على «أرتنني» اسم الرباط ـ رغم أن هذا غير صحيح ـ فإن معالم نظام المرابطة عند ابن ياسين لم تتبلور إلا ببناء الرباط الحقيقي على مصب نهر السنغال والذي أقامه ابن ياسين منفردًا ثم استكمله بمعاونة أتباعه الخمسة الأوائل في عام ٤٤٣هـ الموافق ١٠٥١م.

والحقيقة أن تلك الصيغة العبقرية التي مزج فيها ابن ياسين بين فلسفتي «دار الأرقم» و«الرباط» هي جوهر دعوة عبد الله بن ياسين، فلقد كانت محصلة الفترة الطويلة التي قضاها في الدعوة خلال مرحلتي جدالة ثم لمتونة والتي امتدت لنحو خمسة عشر عامًا وانتهت برصيد يكاد يقترب من الصفر قد أفضت به إلى مراجعة المنهج كما ذكرنا فبدأ مرحلة الرباط بمنهج سليم مستمد من سيرة رسول الله ﷺ ومستند إلى فقه المرحلة، وقد طبق هذا المنهج منذ نقطة البداية، أي منذ مرحلة اختيار لبنات الأساس.

المرابطون

تتحدد ملامح الفقيه المجتهد المجدد وفقًا لعدة عوامل؛ منها مواهب ذاتية ومعطيات شخصية، ومنها إخلاص في توحيد الله وطاعته وعبادته، ومنها علم شرعي واسع ومتعمق، ومنها أيضًا ـ وهو أمر شديد الأهمية ـ معرفة بالواقع ومعايشة له، بل ومعاناة معه أيضًا لكيلا يصبح الفقيه مجرد دار كتب متنقلة يحمل في رأسه فكرًا نظريًا جامدًا متحجرًا لا صلة له بالحياة، ولقد أوتي الفقيه العالم العامل عبد الله بن ياسين من كل عناصر الاجتهاد رزقًا وفيرًا، ومثلت تجربته الدعوية الأولى بكل معاناتها وإحباطاتها زادًا لتعمقه في فقه الواقع وفقه المرحلة وفقه الحركة الدعوية؛ ذلك أنه كان صادقًا مع ربه ومع نفسه في تقييم التجربة، وفي الاعتراف بالخطأ دون أن يكون لحظ نفسه نصيب فما كانت بغيته سوى الله.. والله وحده.. لذلك رزقه الله من السداد والتوفيق ما يرزق عباده الصادقين.

وقد تجلت عبقرية ابن ياسين كفقيه مجتهد في إدراكه لحقيقة مؤداها أنه على الرغم من خروج قبائل الصحراء منذ ما يقرب من قرن من الزمان عن الإسلام بالكلية وعودتها إلى جاهليتها، وأن أفرادها لذلك يعدون من المشركين من ذرية من ارتدوا عن دين الله الحق، فإن الحكم عليهم بذلك بما يستتبعه من أحكام فقهية لا يجوز أن يُلقى على عواهنه لأن هناك فارقًا جوهريًا بين حال مشركي قريش عند البعثة النبوية وحال مشركي صنهاجة اليوم الذين تبقّى معهم بعض إسلام ـ ولو كان مجرد الانتماء له من الناحية الاسمية ـ رغم جاهليتهم، كما أن هناك فارقًا هامًا بين الحكم على فرد أو على مجموعة من الأفراد بالردة وفقًا لضوابط شرعية محددة وما يستتبعه ذلك من أحكام وبين أن

ينسلخ شعب أو شعوب بأكملها عن الإسلام حتى تنقض عراه وتخرج منه وهي تظن نفسها داخله، فالحكم الشرعي يختلف وأسلوب الدعوة يختلف بالتالي، لذلك أسس ابن ياسين نظام مرابطته على المزج بين فقه المرحلة المكية للدعوة ـ دار الأرقم ـ وفقه المرحلة المدنية المتكيف مع الواقع ـ الرباط ـ فجاء هذا النظام واضحًا رائقًا فذًا مستندًا إلى الواقع ومتفاعلًا معه متميزًا باتزان العلماء العظماء ووقوفهم بين إفراط الفكر الخارجي الذي أرّق تاريخنا بضوضاء الفتن وتفريط الفكر الإرجائي الذي أسلمه للموات.

صنع ابن ياسين من رباطه على مصب نهر السنغال قاعدة للانطلاق الدعوي بدأت بالرجال الخمسة الأوائل الذين قضوا معه فترة طويلة في تلقي العلم ومراجعة التطبيق ثم انطلقوا واحدًا إثر الآخر عائدين إلى لمتونة وإلى جدالة وجزولة وغيرها من القبائل الصنهاجية ليقوموا بمهمة الدعوة داخلها بشكل سري هادئ وبدون مواجهة مع السلطات القائمة على نسق أقرب لنسق المرحلة الدعوية الأولى في مكة لاستقطاب مؤمنين جدد وضمهم إلى جماعة الرباط، وهنا نرى ابن ياسين ـ مستفيدًا من تجربة «أرتنني» ـ يرفض الترخص في قبول المرشحين للالتحاق برباطه واضعًا شروطًا شديدة الصرامة لذلك استنبطها باجتهاده الذي حقق به مزجًا ينشد الكمال في نوعية عناصر قاعدة البناء الأولى التي أرادها صلبة شديدة الصلابة كي لا تنكسر أمام المحن ولكي تصلح لإقامة البناء عليها فيما بعد، فقرر مبدأ لم نعلم له مثيلًا وهو «مبدأ التوبة والتطهر» يقضي بأن يقوم الوافد الجديد ـ بعد مقابلته للإمام وقبوله له من الناحية المبدئية ـ بالتطهر من ذنوبه التي ارتكبها قبل انضمامه للرباط وذلك بأن يقر بها طالبًا توقيع الحد الشرعي عليه إن كانت من ذنوب الحدود أو توقيع عقوبة تعزيرية وضعها ابن ياسين في لائحة خاصة تضمنت نظام الرباط مناسبة لذلك الذنب، تلك هي الخطوة الأولى.

تأتي بعد ذلك دورة دراسية جادة من حفظ للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة وتعلم أحكامهما وتطبيق ذلك على حياة الوافد الجديد في كل صغيرة وكبيرة، وبرنامج تعبدي كامل يشمل الفروض والنوافل بشكل يكاد يقترب من تلك التي فُرضت على المسلمين الأوائل في مكة من قيام طويل بالليل وصيام دائم بالنهار، وبرنامج عمل شاق يقوم فيه أعضاء الرباط بأعمال الزراعة والرعي والصيد والغزل والإنشاء تحقيقًا للاكتفاء الذاتي في كل نواحي الحياة، وإلى ذلك كله تدريبات رياضية وعسكرية مكثفة تحت رقابة

صارمة من القائد لا تتهاون مع الأخطاء ولا تترخص مع لبنات الأساس ولا تستهدف حشدًا جماهيريًّا بقدر ما تستهدف انتقاء واعيًا، أو فلنقل متشددًا، وكما ينتقي البنّاء الماهر لبناته الأولى بعناية فائقة فينتخب الصلب منها ويُنحي القابل للكسر تحت المطارق حتى يحين موعد انتخابه، كذلك فعل ابن ياسين فطفق يطرد من الرباط كل من يستشعر فيه ضعفًا أو تهاونًا أو رخاوة كيلا تنتقل عدوى رخاوته إلى الآخرين.

ومع كل هذا التشدد في الاختيار وفي تطبيق النظام داخل الرباط فقد استمرت زيادة المرابطين في اطراد عجيب، ففي الشهور الأولى عاد كل رجل من الرجال الخمسة برجل آخر ثم برجلين ثم بأسر كاملة فتوسع الرباط من بناء واحد إلى عدة أبنية أقيم بعضها على نسق البناء الأول من أفرع الشجر والقش وبعضها الآخر من قماش الخيام ليضم النساء اللواتي وفدن إلى الرباط مؤمنات مجاهدات راضيات بالخضوع لشرع الله في مهجرهن الجديد الذي فررن إليه بدينهن من جاهلية ظالمة ظلماء، وما مرت أعوام ثلاثة حتى بلغ عدد المرابطين ما يقرب من خمسمائة مرابط ومرابطة كلهم مسلم مؤمن مخلص عابد عالم متشوق للجهاد في سبيل الله، وكلهم مهيأ لتطبيق نظام المرابطة الشاق العسير، وكلهم محب لقائده ولإخوانه في الرباط، وكلهم ملتزم بالسمع والطاعة سواء للإمام القائد أو للأمراء الذين عينهم ابن ياسين بعدما قسم أعضاء الرباط إلى مجموعات صغيرة كي يسهل تنظيمهم وتوصيل العلم إليهم عن طريق الأولين الذين خاضوا اختبارًا تلو اختبار حددت نتيجتها مكانتهم داخل الرباط.

وبعد مرور أربعة أعوام من خروج ابن ياسين وحيدًا طريدًا من لمتونة تحدث الواقعة التي تعد مَعْلمًا هامًا في مشوار الدعوة الإسلامية داخل الصحراء والتي هيأت لانتقالها من مرحلة إلى مرحلة، ففي صباح أحد الأيام يستأذن رجل في الدخول على ابن ياسين فلما أذن له إذ هو واحد من رجاله بصحبته يحيى بن عمر أحد أمراء لمتونة الأقوياء جاء ليعلن انضمامه ومن تبعه من أفراد القبيلة إلى رباط ابن ياسين ودخوله في طاعة الإمام.

جهاد واستشهاد

أقصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم.. ذاك أيضًا في هندسة التاريخ.. فهكذا يتحقق لابن ياسين في أربعة أعوام فقط من الدعوة وفق منهج رباني قويم مرتكز على فقه المرحلة ما لم يتحقق له خلال خمسة عشر عامًا من التخبط غير المدروس ومن الاحتفاء بالكثرة العددية دون نظر لجودة النوعية أو للتناسب بين صلابة التكوين ومشقة الطريق، هكذا تأتي ـ على عجل ودون استعجال ـ نقطة التحول من استضعاف إلى تمكين ومن انتقاء لعناصر صلبة متفردة إلى ترخص في القبول محسوب ومن مرابطة وكف للأيدي إلى دعوة جماهيرية وجهاد عندما تنشأ بانضمام أمير لمتونة سلطة سياسية موازية للسلطات السياسية الجاهلية القائمة في الصحراء فتصبح المواجهة بين نظامين سياسيين كما حدث بعدما نشأ في المدينة المنورة نظام سياسي بقيادة رسول الله ﷺ فانتهت بذلك مرحلة ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾[1] وبدأت مرحلة ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[2].

ويخايلني هنا معنى مرتبط بهذا الاسم الكريم «يحيى» الذي كان أول من تسمى به على وجه الأرض نبي كريم ابن نبي كريم سماه ربه ولم يسمه والداه ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾[3]، تُرى ألهذا التكريم يبزغ من بين ظلمات الصحراء رجلان يحملان الاسم ذاته يقبض كل منهما على زمام المبادرة التي تدفع بقافلة التوحيد في طريقها لنشر نور الرب تبارك اسمه ولتحيل ذلك الجدب

---

(١) سورة النساء، آية ٧٧.

(٢) سورة البقرة، آية ١٩٣.

(٣) سورة مريم، آية ٧.

القاحل إلى جنة وارفة؟! تُرى ألهذا التكريم كان توفيق الرب سبحانه للأمير الحاج يحيى ابن إبراهيم الجدالي كي يصطحب ابن ياسين لنشر الدعوة الإسلامية في الصحراء، وتوفيقه للأمير المجاهد يحيى بن عمر اللمتوني كي يصبح بانضمامه وقبيلته إلى المرابطين قوة تمكين لدين الله على تلك المساحة الشاسعة من أرض الله؟!

ما إن قدّر ابن ياسين أن المرابطين لن يُغلبوا من قلة بعد أن بلغ عددهم ألفًا أكثرهم من ذلك الفرز الأول الصلب الذي انتخبه الإمام ورباه على عينه حتى اجتمع بهم فخطب فيهم ودعاهم إلى الخروج لدعوة قبائل الصحراء إلى العودة إلى دين الله الحق ورغّبهم في الجهاد في سبيل الله وذكّرهم بالجنة وبمراتب الشهداء فقالوا له: «أيها الشيخ المبارك، مُرْنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين.. ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا»، هنا أيقن ابن ياسين أن الغرس الرباني قد آتى ثماره فقال لهم: «اخرجوا؛ أنذروا قومكم فإن تابوا فخلوا عنهم وإن أبوا جاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين».

وهكذا بدأ خروج المرابطين فرادى وجماعات من مصب نهر السنغال عام ٤٤٧هـ الموافق ١٠٥٥م متوجهين بدعوتهم إلى قبائل الصحراء، وبدأت خطوات عودة الإسلام من بعد غربته الثانية بالوعظ والإنذار، فمن الناس من استجاب ومنهم من أعرض، فمن استجاب التحق بجماعة المرابطين كفرز ثان جاء أوان قبوله في البناء، ثم خرج ابن ياسين بنفسه فعقد مؤتمرًا عامًّا لرؤساء القبائل دعاهم فيه إلى العودة إلى الإسلام وتطبيق شرائعه كما أمرهم الله تعالى، ثم أمهلهم سبعة أيام فلما لم يجد منهم سوى الإعراض والتلكؤ ومحاولات الالتفاف والتملص بدأ يغزو بجيشه القبائل ليُسقط السلطات السياسية القابضة على أزمّة الحكم وليخلي بين الناس ودين الله، فبدأ بقبيلة جدالة المهد الأول لدعوته ثم أخضع لمتونة وبعدها مسوفة، وخلال عام واحد وبعد معارك شاقة أثبت فيها المسلمون قوتهم وعزيمتهم وحرصهم على الشهادة خضعت قبائل صنهاجة الصحراء لدعوة المرابطين فبايعوا ابن ياسين على تجديد إسلامهم وعلى التوبة والتطهر وعلى إقامة أحكام الكتاب والسنة، ومن ثَمَّ بدأ دخول الناس في دين الله من جديد وتوالى قبول الفرز الثالث؛ وهو ذلك الصنف من الناس الذي يؤمن بالإسلام ويرضى بشريعته لكنه لا يقوى على نصرته حال الاستضعاف، وهؤلاء يكتمل بهم البناء.. لكنه لا يقوى بهم من ضعف ولا ينتصر بهم من هزيمة.

وفي العام ذاته اجتمع علماء سجلماسة ودرعة الواقعتين إلى جنوب شرق المغرب الأقصى وقرروا أن يكتبوا لابن ياسين داعين إياه لتخليصهم من جور سلطان المغراوية الزناتية وبدعهم وضلالاتهم فأجاب دعوتهم وتمكن من هزيمة المغراوية الحاكمين وأصلح أحوال البلاد وولّى عليها من المرابطين، وفي طريق عودته إلى الصحراء توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني بعد أن قدم خلال الفترة القصيرة التي التحق فيها بجنود الله المرابطين خدمات جليلة للإسلام فولى ابن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر قيادة الجيش مكانه لكي تستمر رحلة المرابطين في بلاد المغرب من نصر إلى نصر ولكي ينتهي عصر التشرذم المناقض لطبيعة الإسلام فتتوحد بلاد المغرب كلها تحت راية واحدة.

كان هدف توحيد بلاد المغرب تحت الراية الإسلامية والقضاء على فلول الطوائف الكفرية والبدعية واضحًا أمام ابن ياسين وهو يتجه بجيشه إلى الشمال الغربي لمقاتلة الطائفة البرغواطية التي أقامت دولتها الكافرة على إقليم تامستا منذ عام ١٢٥هـ أي في خلافة هشام بن عبد الملك بعدما اجتمعت على رجل اسمه صالح بن طريف زعموا أنه المهدي المنتظر وأنشأ لهم دينًا خليطًا من الشريعة الإسلامية والشرائع البدعية والوثنية وكونوا دولة قوية أنهكت حكام المغرب المتعاقبين على مدى ثلاثة قرون وأججت الفتن ولطخت صفحات التاريخ المغاربي وألحقت الهزائم بالجيوش النظامية وكانت أحد أسباب تفتت المغرب حتى استشار عبد الله بن ياسين قواد جيشه فعاهدوه على قتالهم حتى آخر جندي فيهم فسار إليهم عام ٤٥٠هـ وجرت بين الطرفين معارك حامية أصيب خلالها الداعية الرباني عبد الله بن ياسين بجرح قاتل فحمله جنوده إلى المعسكر وهم في شدة الحزن على إمامهم وزعيمهم وقائد مسيرتهم، إلا أن ابن ياسين كان يتطلع بشوق إلى لقاء ربه وإلى مرتبة الشهداء فالتفت إليهم قبل أن يسلم الروح وأوصاهم بتقوى الله والاعتصام بحبله وبأن تتوحد كلمتهم خلف من يختارونه لإكمال المسيرة.

وهكذا مضى الإمام الفقيه العالم عبد الله بن ياسين من دار العمل إلى دار الجزاء رحمه الله بما قدم للإسلام والمسلمين وألحقه بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولقد اجتمعت كلمة المرابطين على أبي بكر بن عمر ليحمل الراية من بعده.

دولة المرابطين

لقي عبد الله بن ياسين ربه في شهر جمادى الأولى عام ٤٥١هـ الموافق يونية ١٠٥٩م بعدما أصابه جرح قاتل أثناء جهاده الطائفة البرغواطية المرتدة فأدمى الحزن قلوب المجاهدين، بينما عم الفرح صفوف البرغواطيين وظنوا أن النصر سيكون حليفهم بعدما تتشتت جهود المرابطين بمقتل زعيمهم، إلا أن هؤلاء وقد اجتمعوا على اختيار أبي بكر بن عمر اللمتوني خلفًا للإمام الراحل فقد التفوا حوله دون تلكؤ فتمكن خلال فترة قصيرة من إعادة تعبئة الجيش المجاهد ووضع ابن عمه المقاتل الشجاع يوسف بن تاشفين على ميمنة الجيش ـ في أول ظهور له على مسرح الأحداث ـ ثم أعاد الكرة عاقدًا العزم على استئصال شأفة هذه الطائفة الكفرية التي استولت على بلاد السوس الأقصى ونشرت الفساد في ربوع المغرب طوال ثلاثة قرون كاملة.

وفي خلال عام واحد تمكنت الفئة القليلة المؤمنة الصابرة من المرابطين ـ ألفا مقاتل ـ من هزيمة الفئة الكثيرة المرتدة ـ اثنا عشر ألف مقاتل ـ ومن القضاء تمامًا على الدولة البرغواطية وفتح عاصمتها «أغمات» في سفح جبل المصامدة بالسوس الأقصى واتخاذها قاعدة للجيش المرابطي ينطلق منها لتحرير بلاد المغرب وتوحيدها والقضاء على حكم الطوائف بها ما بين مرتدة ومبتدعة ومتصارعة على الحكم ولو أدى ذلك إلى تمزيق البلاد، وبعد مقتل أمير أغمات لقوط بن يوسف أعلن البرغواطيون عودتهم إلى دين الإسلام الحق وولاءهم للمجاهدين، وكذا فعلت زينب النفزاوية زوجة لقوط وأجمل نساء عصرها فتزوجها الأمير أبو بكر بن عمر، وكان لها دور كبير في دولة المرابطين كما سنرى.

كان الإمام عبد الله بن ياسين ومن معه من المرابطين الأولين قد بدأوا في إرساء القواعد التأسيسية لدولتهم بمجرد انتهاء مرحلة الاستضعاف ونشوء سلطة سياسية في الرباط، تلك الدولة الوليدة القائمة على أحكام الإسلام كما تضمنها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم الاجتهاد وفقًا لمذهب أهل السنة والجماعة من المالكية وهو ما يمكن أن نطلق عليه بلغة العصر «الدستور» الذي توافق الناس على الخضوع له، ثم كان لهذه الدولة الناشئة جهاز إداري مناسب لتلك المرحلة المبكرة وبيت مال وجيش مسلح ومدرب له خطط مدروسة، وقد تطورت النظم الإدارية لدولة المرابطين بالتوازي مع خطوات توسعها خارج الصحراء بدءًا من فتح درعة وسجلماسة ثم أودغست الزناتية وتامسنا وأغمات وسائر بلاد السوس الأقصى، وفي تلك المرحلة أصبحت أغمات عاصمة الدولة المرابطية وأبو بكر بن عمر اللمتوني أميرها ويوسف بن تاشفين قائد جيوشها التي توسعت بانخراط البربر الزناتية في صفوفها بعد أن كانت قاصرة على بربر الصحراء مما أدى إلى تطور حضاري ملموس ينتجه امتزاج الثقافات الإنسانية ثم انصهارها في بوتقة واحدة يحكمها نظام قانوني يتميز بالعدالة وبالمرونة وبالقدرة على استيعاب العناصر المكونة لهذا الكيان المتماسك وتنظيم حركتها، وأي نظام أقدر من ذلك الذي فرضه صانع الكون سبحانه لكي يحكم حركة صنعته؟!

وفي عام ٤٥٣هـ يتوفى المعز بن باديس أعظم ملوك القيروان فتتهاوى بوفاته دولة بني زيري الصنهاجية في الشمال الإفريقي الذي يتمزق إلى دويلات تحكمها أسر بربرية أنهكتها الحروب التي أشعلتها الدولة الفاطمية بعد رحيلها من المغرب واستيلائها على مصر بدفعها لقبائل بني هلال وبني سليم العربية إلى الهجرة في أفواج متلاحقة من منطقة شرق النيل إلى شمال إفريقيا في محاولة لإذلال البربر ولزرع بذور الصراع العرقي والطائفي التي أنبتت تقاتلًا على السلطة وعلى الموارد المحدودة، واستمر مسلسل الحروب الهلالية الزناتية التي خرّبت المعالم الحضارية للمنطقة ودمرت القيروان، تلك الحروب التي أُحيطت في السيرة الشعبية بفعل التأثير الثقافي الفاطمي بسياج من البطولات الملحمية الزائفة لطمس الحقائق ولإلهاء المسلمين عن الإظلام الذي استهدف الصفحات الحقيقية والمضيئة في تاريخهم، فقدمت أحداث تلك الفترة سببًا إضافيًا إلى ما سبق أن ذكرناه من أسباب الانقسام السياسي ونشوء نظام للطوائف على غرار ما عرفته الأندلس في فترة معاصرة، لذا فقد بدا هدف المرابطين واضحًا ومحددًا بعد توحيد قبائل

الصحراء ثم منطقة السوس الأقصى وهو الاتجاه شمالًا لتوحيد سائر الدويلات تحت راية سياسية إسلامية واحدة، ومن ثم بدأ إعداد الجيوش لاستكمال الفتوح في شمال المغرب، وفي هذا الوقت وصلت الأخبار من جنوب الصحراء بأن نزاعًا قد نشب بين القبائل.

ذلك أن الفرز الثالث ثم الرابع من لبنات البناء - الداخلين في الإسلام بعد انتصاره؛ وهم أشبه بمسلمي الفتح - قد بدأوا بعدما فتح الله على المرابطين واطمأنوا إلى دخولهم في صفوف الجانب المنتصر في التنافس على المكاسب الدنيوية التي لا شك آتية مع تطبيق أحكام الإسلام ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[1] فنشب نزاع بين قبيلتيْ جدالة ولمتونة، كلٌّ منهما تطمح إلى الزعامة وإلى المكاسب المادية المترتبة على ذلك، وبينما تستند جدالة إلى أن الحركة الإسلامية بدأت على أرضها تحتج لمتونة بأنها سبب التمكين وبأن أمير المرابطين منها، وهكذا حال هذا الصنف من الناس لا ينصرون الإسلام في غربته فإذا ما نصره الله بالطائفة المؤمنة القابضة على جمار الحق أسرعوا ليعلنوا ولاءهم وليطالبوا بنصيبهم من غنائم النصر، ولقد كان الأقرب إلى التصور أن يرسل الأمير أبو بكر بن عمر نفرًا من علماء المرابطين وفرقة من الجنود لإصلاح ذات البين ولتأديب الخارجين على النظام، لكنه وهو التقي المجاهد الذي انضم مع أخيه إلى رباط ابن ياسين فتعلم على يديه أن قوة المسلمين في وحدتهم اختار أن يذهب بنفسه إلى الصحراء لإصلاح ما أفسدته أطماع الدنيا فولّى مكانه ابن عمه قائد الجيوش يوسف بن تاشفين ثم اصطحب فرقة من الجنود ومضى نحو الجنوب.

تمكّن الأمير أبو بكر بن عمر من تسوية النزاع الناشب بين قبيلتيْ جدالة ولمتونة وأمضى شهورًا في ترسيخ مبادئ الأخوة والوحدة الإسلامية لدى القبائل الصنهاجية، إلا أن المفاجأة كانت بعد أن عاد الأمير إلى أغمات وقد أضمر في نفسه أمرًا عجيبًا لم نعرف له مثيلًا في التاريخ الإنساني ولا نتصور وجوده إلا لدى ذلك النوع من البشر الذين استيقنوا أن الدنيا ما هي إلا مزرعة للآخرة فيمموا وجوههم أينما وجدوا الأرض مهيأة للغراس.

---

(١) سورة الأعراف، آية ٩٦.

تجارة رابحة

واحد من أسباب النزاع الناشب بين قبائل جنوب الصحراء بينما جيش المرابطين ينطلق نحو الشمال ناشرًا نور الإسلام الحق في أرجاء المغرب كان التنافس بينها على أولوية ومكاسب التجارة مع أقاليم السودان وهو تنافس عرفته القبائل البربرية منذ قديم الزمان مع تشابك العلاقات التجارية بينها وبين تلك الأقاليم كما ذكرنا سابقًا، فلما مكث الأمير أبو بكر بن عمر شهورًا في الإصلاح بين الناس وفي إرساء قواعد الوحدة الإسلامية تاقت نفسه وهو هناك في الجنوب بالقرب من موقع رباط ابن ياسين إلى نوع آخر من التجارة الرابحة دونها أية احتمالات للخسارة فعقد العزم على أن يتنازل عن إمارة المرابطين ويترك أغمات ثم يعود إلى حيث منطلق هذه التجارة الرابحة؛ لذا غادر الأمير الصحراء لفترة مؤقتة ريثما يرتب أحوال الدولة الوليدة ثم يعود، فتوجه مسرعًا صوب أغمات وصدى تراتيل قدسية يتردد في جوانحه فيصرفه عن كل ما في الحياة سوى هذه البهجة النورانية التي غمرت كيانه بإشراقاتها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]، حين وصلت قافلته إلى أغمات كانت روحه قد بلغت من الشفافية ما يكاد المستقبل يتكشف أمامها فيظهر واضحًا جليًا، لذا كان أول لقاء له مع زوجته زينب.

---

(١) سورة الصف، الآيات ١٠ ـ ١٢.

كانت زينب بنت إسحاق النفزاوية - أو الست زينب كما يطلقون عليها - تنتظر عودة زوجها الأمير من رحلته في الصحراء فإذ به يفاجئها بأنه عقد العزم على التنازل عن منصب الإمارة والرحيل من بلاد السوس إلى الصحراء ليجعلها منطلقه إلى بلاد السودان الواقعة أسفل مصب نهر السنغال للدعوة والجهاد بين قبائلها التي ما زالت حتى ذلك الوقت على وثنيتها القديمة لم تصلها الدعوة الإسلامية بعد، وأنه لذلك يريد أن يطلِّقها... وهنا يروي قدامى المؤرخين كابن عذارى وابن أبي زرع أنه قال لها: «يا زينب إنك ذات حسن وجمال فائق، وإني سائر إلى الصحراء برسم الجهاد لعلي أرزق بالشهادة، وأنت امرأة لطيفة لا طاقة لك على بلاد الصحراء، وإني مطلقك فإن أتممت عدتك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب».

ثم جاءت الخطوة التالية وهي استدعاء يوسف بن تاشفين في حضور كبار رجال الدولة المرابطية ليشهدهم أنه قد خلع نفسه من الإمارة وتنازل عنها لابن عمه قائد الجيوش الذي عرفه الناس بالتقوى والورع وسداد الرأي والعدل والشجاعة، ثم قال له فيما يذكر المؤرخون: «يا يوسف.. إني قد وليتك هذا الأمر وإني مسئول عنه فاتق الله في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك من النار ولا تضيع من أمر رعيتك شيئًا فإنك مسئول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم»، ثم خرج مغادرًا إلى الصحراء وسار معه يوسف مشيعًا فأخبره أنه طلق زينب ونصحه بالزواج منها قائلًا له: «تزوجها فإنها امرأة مسعودة»! فلنؤجل إذًا الحديث عن تلك السعادة التي بشر بها ابن عمه إن هو تزوج مطلقته زينب، ولنرتحل قليلًا مع الأمير الورع الزاهد المجاهد أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي ترك المغنم والسلطان والمرأة «فائقة الجمال» «المسعودة» على حد تعبيره جريًا وراء تجارة لن تبور.

ويستوقفنا هنا أن أبا بكر اختار يوسف بن تاشفين للإمارة بدلًا من ابنه إبراهيم رغم ما عُرف عن هذا الأخير من عقل وشجاعة، لكنه اختار الأفضل لقيادة الدولة واختار لابنه السبيل الأفضل باصطحابه معه في رحلة الدعوة والجهاد التي مرت عبر سلجماسة بداية الطريق الإفريقي بعد أن نجح في إعادة تأهيل وتوجيه الغضب القبائلي ليصبح غضبة لله وحماسة لنشر دينه الحق في تلك الربوع الإفريقية المترعة بالوثنية وبالجهالة

وبالظلم وبالتخلف وبالفساد، حتى ليروي الرحالة والمؤرخون المعاصرون لتلك الفترة من عجائب العادات الاجتماعية ما تتقزز منه النفوس، ويكفي أن نعلم أنهم كانوا يخرجون إلى الطرقات رجالًا ونساء وقد كشفوا عن أعضائهم التناسلية ثم يتباهون بتزيينها وباستعراضها، وقد كانوا لجهلهم لا يعرفون قيمة ما يملكون من ثروات طبيعية أهمها الذهب الذي كانوا يبيعونه للبربر مقابل الملح الصخري المستخرج من الصحراء في الوقت الذي كانت ترتحل فيه الأسر الفقيرة في قوافل إلى المغرب حيث أكبر سوق عالمي لتجارة العبيد لتبيع بعض أبنائها مقابل النذر اليسير من الطعام ومن البضائع التافهة، ولقد تفشى فيهم الظلم الاجتماعي إلى درجة لا توصف فدمغتهم العبودية وأذلتهم في حِلهم وترحالهم.

وهكذا بدأت خطوات الدعوة بين القبائل الوثنية جنوب موريتانيا وفي السنغال ثم باتجاه غانة القديمة التي تفككت الآن إلى عدة دول إفريقية، وقد سارت سياسة الفتح المرابطية في بلاد السودان الغربي على النهج ذاته الذي استنَّه الفاتحون الأولون بدءًا بالدعوة السلمية وضم من يهديه الله للإسلام إلى صفوف المجاهدين، ثم مواجهة القوى الجاهلية الظلامية التي تتعارض مصالحها الضيقة مع تطبيق الإعلان العالمي لتحرير البشر من عبودية كل شيء وكل أحد إلا خالق الكون جل جلاله، ولأن هذه القوى لا يمكنها أن تعيش وتتحرك وتنمو إلا في الظلام فهي تواجه النور القادم بكل ما تملك من بطش لتطفئه فيصبح الجهاد ضرورة حتمية ليتم الله نوره رغم أنوفهم، وهنا تمضي سنة الله في خلقه فينصر الله الفئة القليلة المؤمنة ويدخل الناس في دين الله أفواجًا بعدما تتحرر إرادتهم بتضحيات المجاهدين والشهداء الفاتحين الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الله ونشر دينه الحق، ولقد فعلها أبو بكر بن عمر.. فلنتذكر كلماته لزينب وهو يودعها قائلًا: «لعلي أُرزق بالشهادة»، فيا له من رزق طيب وفير لا ينقطع، ويا لها من تجارة رابحة عَزَّ وغنم من رعاها وذَلَّ وخسر من ضيعها.

في تلك الأثناء كان يوسف بن تاشفين يُعد جيشه للانطلاق شمالًا لتوحيد بلاد المغرب تحت راية واحدة، لكنه استهل ولايته بإنشاء مدينة جديدة لتصبح عاصمة الدولة بدلًا من أغمات، ولقد اختار مكان عاصمته الجديدة «مراكش» بناء على مشورة الست زينب، فكيف تم ذلك وماذا يعني اسم مراكش؟

موروكاش.. موروكاش

بدأ التفكير في بناء عاصمة جديدة للدولة المرابطية بدلًا من أغمات التي ضاقت بسكانها من قبل أن يتنازل أبو بكر بن عمر عن الإمارة ويرتحل إلى الصحراء، ومن ثَمَّ اتجه البحث عن مكان مناسب لها، ثم تأجل المشروع حتى اقترحت زينب النفزاوية على زوجها الأمير يوسف بن تاشفين أن يشيد المدينة الجديدة على أرض مجدبة تقع بين هيلانة وهزميرة، وهو الاقتراح الذي تعجب له الجميع.

ذلك أن تلك المنطقة الخلاء المنخفضة والواقعة في سفح جبل درن كانت معروفة بأنها أرض خربة؛ فلم يكن بها زرع ولا ماء إلا الحنظل وبعض الأشواك النابتة، ولا يسكنها بشر؛ لذا مثلت طويلًا هاجسًا أمنيًا للقبائل المضطرة للعبور من خلالها فكانوا إذا دنوا منها يتعجلون السير ليقطعوها سريعًا خوفًا من مخاطرها وهم يتنادون: «موروكاش.. موروكاش»؛ أي «مروا سريعًا» باللغة الأمازيغية، لكن الست زينب التي عاشت حياتها في منطقة السوس الأقصى وخبرت من أسرارها ما لا يدركه مرابطو صنهاجة الصحراء، وتميزت ـ إلى جانب جمالها الفائق ـ بالحكمة وبالذكاء وبالخبرة التي اكتسبتها من زواجها باثنين من أمراء برغواطة ثم باثنين من أمراء المرابطين حتى لُقبت بـ «زوجة الملوك»، تلك السيدة التي أعزها الله بالإسلام كانت تعلم أن هذا الموقع الخرب المخيف يحوي في باطنه خيرًا كثيرًا فقُربه من وادي تنسيفت على مسيرة ثلاثة أيام رجّح لديها وجود ماء جوفي وفير يمكن استخدامه للزراعة بعد حفر الآبار، كما أن نقل العاصمة إلى هناك سوف يؤدي إلى سيطرة المرابطين على جبل درن بما له من موقع استراتيجي يضيف إلى قوتهم الحربية، وهكذا بدأ الأمير يوسف يتلمس خطاه بناء على نصيحة الست زينب،

ثم كان بناء موروكاش أو «مراكش» درة المدن وعاصمة المرابطين التي سيرتبط بها اسم المغرب الأقصى على طول الزمان فتظل تُعرف حتى يومنا هذا باسم «البلاد المراكشية».. وهكذا الإسلام ينشر الحضارة أينما سارت قافلته، فكما صنع من فاندالسيا «بلاد الهمج» أندلسًا يكفي نطقها لتتداعى إلى خيالك كل مفردات الحضارة من علم وتقدم ومدنية ورقي وفن وجمال، كذلك أحال أرض الخراب (مروا سريعًا) مراكش تتلألأ حروفها نورًا وبهجة، لؤلؤة المغرب وعاصمته لقرن من الزمان وأهم مدنه، حتى بعدما انتقلت العاصمة منذ غصر دولة الموحدين إلى «الرباط» ظلت مراكش العاصمة السياحية حتى اليوم، وما الرباط؟ أليست تلك المدينة التي بدأت بحصن بناه المرابطون وأطلقوا عليه ذلك الاسم الكريم تيمنًا برباط ابن ياسين؟ أليست هي القافلة ذاتها.. قافلة التوحيد تمضي في طريقها لتنشر في ربوع الأرض أمنًا وبركة وسلامًا ورخاء؟!

كان يوسف بن تاشفين حين تزوج زينب النفزاوية قد قارب الستين من عمره دون أن يُرزق بولد، ولقد كانت الست زينب مسعودة بحق كما أخبره زوجها السابق ابن عمه أبو بكر بن عمر فقد أنجبت له أول أبنائه وولي عهده المعز بالله، ثم لما شيد عاصمته مراكش بناء على نصيحتها أخبرته بفراستها أنه سيملك المغرب كله، وبذلت الجهد في تجميع الجنود البرغواطيين والمال اللازم للإمداد العسكري، وكانت خير مرشد له ومعين، خاصة وأن طبيعته كرجل أمازيغي حر لم تمنعه من وضعها حيث يجب أن تكون الزوجة شريكة الحياة، فالمجتمع البربري ظل طوال تاريخه يضع المرأة في مكانة عالية، ولقد ذكرنا سابقًا أنه كان مجتمعًا «ماترياركيًا» يمنح المرأة مركز السيادة في الأسرة وينسب الأبناء لها؛ وما اسم «لمتونة» قبيلة يوسف إلا اسم امرأة، ولقد جاء الإسلام في المرة الأولى ثم بعد غربته الثانية فأقر لها بهذه المكانة وأحاطها بسياج يحميها من أن تنزلق إلى المهانة والصغار فتصبح مجرد جسد لإمتاع الرجال، لذا نجد قدامى المؤرخين يصفون مكانة زينب بقولهم: «كانت أميرة عند يوسف، وكذلك جميع الملثمين ينقادون لأمور نسائهم ولا يسمون الرجل إلا بأمه فيقولون فلان ابن فلانة ولا يقولون ابن فلان»، والمقصود بالملثمين بربر صنهاجة ومنهم المرابطون، فقد كان الرجال لا يخرجون إلا ملثمي الوجوه بينما تسفر النساء عن وجوههن، وما زال ذلك متبعًا في أحفادهم الطوارق الحاليين، وقد ذُكر في أسباب ذلك ما بدا لي مجرد أساطير غير موثقة.. وأعتقد

أن طبيعة الصحراء الغربية بعواصفها الرملية الرهيبة هي التي أجبرت الجمّالة الكبار على التلثم؛ اتقاء للرمال الخانقة، ثم أصبح الأمر عادة من الصعب التخلي عنها، بل وأصبح كشف الرجل اللثام عن وجهه في تقاليدهم عيبًا مماثلًا لكشف العورة، فهم يقولون إن الفم يدخل منه الطعام إلى الجسم فيجب ستره كما يُستر مخرج هذا الطعام!



٦ ـ طارقي (تاركي) معاصر من بربر الصحراء الملثمين.

بعد ثلاثة أعوام من الجهاد في السودان الغربي وفي عام ٤٦٨ هـ يصيب أبا بكر بن عمر سهم قاتل يرزقه الله به ما تمنى من الشهادة فيتسلم ابنه وقواد جيشه الراية ليواصلوا جهادهم لنشر نور الإسلام في ربوع القارة حتى يصلوا إلى الجابون جنوبًا وإفريقيا الوسطى شرقًا، أما يوسف بن تاشفين فينطلق من مراكش نحو الشرق والشمال مستهدفًا توحيد البلاد تحت قيادة واحدة، فبدأ بسياسة المهادنة التي تضمنت عقد تحالفات مع قبائل المغرب الزناتية ـ من بربر البتر ـ المسيطرة على بلاد السوس الأدنى، وتمكن من

ضم تامسنا التي كانت مقدمة لفتح مكناسة ثم فاس عاصمة السوس الأدنى، وأهم مدن المغرب وقتئذ والتي عرفت بعد ضمها للدولة المرابطية استقرارًا سياسيًّا افتقدته طويلًا أنتج تنمية في شتى المجالات فأمر ابن تاشفين ببناء المساجد في كل أحيائها وأعاد تخطيطها وتمهيد طرقاتها وبنى فيها الأسواق والفنادق والحمامات فعرفت المدينة على يد أهل الصحراء من الجمَّالة الكبار من العمران الذي بلغ حد الترف في أواخر أيام ابن تاشفين ما لم تعرفه مع حكامها من أهل الحضر، لكنه الإسلام حين تترسخ العقيدة السليمة في نفوس أتباعه تأتيهم الدنيا راغمة فلا يتلهون بها وإنما تمضي قافلتهم ناشرة الخير والعدل والحق والرخاء على جانبي الطريق.

وهكذا فُتحت سائر دويلات المغرب التي وفد أمراؤها لمبايعة ابن تاشفين فوصلهم وأبقاهم على إماراتهم التي انضمت للدولة المرابطية المتوسعة جنوبًا حتى قلب إفريقيا، وشرقًا حتى تلمسان، ثم شمالًا حتى سبتة وطنجة بالقرب من مضيق جبل طارق أو ما يطلق عليه «عدوة الأندلس الإفريقية»، هذه الإمبراطورية القوية أغرت مستشاري الأمير يوسف بأن يقترحوا عليه التسمي بلقب «أمير المؤمنين».. لكنه رفض بإصرار.

أمير المسلمين

كان العالم الإسلامي في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري ـ الذي تقف أحداثنا على أعتابه الآن ـ قد وصل إلى درجة من الضعف والتشرذم والتقاتل والتناحر لم يبلغها منذ نشأت الدولة الإسلامية الأولى بالقيادة النبوية الشريفة في المدينة المنورة، وقد ترتب على ذلك أن غدت الدولة مطمعًا لأعدائها وهدفًا لمؤامراتهم ولغزواتهم المتكررة، وهكذا سقطت مصر تحت حكم الفاطميين الذين أقاموا بها دولة تمدد نفوذها حتى الشام والحجاز، ثم تحالفت مع البيزنطيين لضرب الخلافة العباسية في بغداد وهو ما شجع عددًا من الدويلات على الانفصال عن الخلافة فتمزقت منطقة آسيا الصغرى إلى دويلات متصارعة، وتشظى الشام في إمارات مستقلة كدمشق وطرابلس، وتوزع اليمن بين ثلاث طوائف متحاربة، هذا فضلًا عن أحوال الأندلس المنقسمة بين ملوك الطوائف وسقوط عاصمتها طليطلة في أيدي القشتاليين، فإذا ما تذكرنا أن الأندلس لم تكن حتى ذلك الحين جزءًا من الخلافة العباسية وإنما ظلت إمارة ثم خلافة أموية حتى بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق إلى أن تمزقت بين ملوك الطوائف كما رأينا سابقًا.. وإذا ما تذكرنا كيف كانت أحوال المغرب حتى سنوات قليلة مضت قبل قيام حركة ابن ياسين للإحياء الإسلامي في الصحراء.. إذا ما تذكرنا ذلك كله لأصبح واضحًا أمامنا ما كانت تعانيه الخلافة العباسية وقتئذ من ضعف وهوان ومن قلة حيلة إلى الحد الذي دفع الخليفة القائم بأمر الله إلى الاستنجاد بطغرل بك السلجوقي لإنقاذه من المتآمرين ولإعادة توحيد بعض الأجزاء المتشرذمة من دولة الخلافة.

في تلك الأجواء التي صارت فيها الخلافة العباسية الضعيفة في بغداد أقرب للرمز

المعنوي منها للحقيقة الواقعة بدا اقتراح رجال الدولة المرابطية على القائد المنتصر وموحد دول الشمال والغرب الإفريقي يوسف بن تاشفين بأن يتسمى باللقب الخلافي «أمير المؤمنين» اقتراحًا أقرب إلى المنطق، غير أن الأمير المسلم الذي أسس نظام حكمه على عقيدة ثابتة راسخة كان مدركًا تمامًا لمعنى الولاء في الإسلام وأنه أصل من أصول العقيدة وسبب من أهم أسباب النصر الذي لا يتحقق إلا بوحدة المسلمين تحت راية واحدة، ذاك الولاء الذي تعلمه من كتاب الله سبحانه ومن سنة رسوله ﷺ، وهذا الاتحاد الذي جعله الله تعالى سببًا للنصر وجعل ضياعه فقدانًا للطريق ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[1] هو الذي أنطق ابن تاشفين بقولة حق لا ينطقها أبدًا من كان مبتغاه دنيا أو سلطة أو زعامة: «حاشا أن أسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس، وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم»، وهكذا فوض ابن تاشفين ـ رغم قوته وتمكنه ـ الأمر إلى خليفة المسلمين ـ رغم ضعفه وتهافته ـ وأرسل له سفارة إلى بغداد ومعها هدية رمزًا للطاعة وطلبًا للولاية الشرعية فعادت السفارة بهدية من الخليفة وبخلع أميري وبكتاب تقليد يوسف بن تاشفين ولاية المغرب وما فتحه من بلاد إفريقيا، ومع توالي الأحداث والبطولات والفتوحات حصل ابن تاشفين بإجماع العلماء على لقب سلطاني ـ وليس خلافي ـ اشتهر به في التاريخ الإسلامي ولم يُطلق على أحد سواه وهو لقب «أمير المسلمين وناصر الدين» الذي ما إن تسمعه حتى تتداعى إلى مخيلتك صورة ذلك الفارس البربري الشجاع النبيل التقي الورع الزاهد العادل الصالح الذي تحقق في عهده من الإنجازات ما لم يتحقق طوال التاريخ المغاربي والذي تأسست تحت زعامته الدولة المثل التي نَرُدّ بذكرها على ما يهرف به الجاهلون والكذابون والخونة والظلاميون والمنهزمون في دواخلهم، الفارون ذعرًا من ذواتهم والمتوارون خجلًا من هوياتهم؛ أولئك الذين يزعمون أن دولة الإسلام ما قامت إلا في فترة النبوة ومطالع الخلافة الراشدة على أحسن تقدير ثم انهارت فلم تقم لها قائمة.. ولا تصلح لأن تقوم مرة أخرى، نَرُدُّ عليهم بما يرطب ألسنتنا من ذكر دولة المرابطين وغيرها من دول الإسلام التي أسست على صرح مستقى من ذلك النموذج الأول الذي بلغ عنان السماء والصالح دومًا للاقتداء به كلما استيقظ المسلمون من سباتهم وعادوا إلى عقيدتهم السليمة وعرفوا

(١) سورة الأنفال، آية ٤٦.

أنهم لم يُبعثوا لمجرد إقامة دولة قوية وصالحة على قطعة من الأرض وإنما لقيادة الدنيا كلها ولتحرير البشر كافة ولإخراج الناس جميعًا من الظلمات إلى النور، لأنهم للناس ابتُعثوا وليس لأنفسهم فقط ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] نعم.. للناس كافة ولو كرهت الجرذان المذعورة.

عودة لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين لنلقي نظرة سريعة على النظام الإداري لدولة المرابطين التي أصبحت أكبر وأهم وأقوى الدول الإسلامية في تلك الفترة حيث يثير العجب والإعجاب مدى ما وصلت إليه تلك الدولة في ولايته ـ وهو ربيب الصحراء وسليل رعاة الإبل ـ من تقدم ومدنية:

- أقام أمير المسلمين دواوين الإنشاء والمال، ووضع نظامًا للضرائب ونظامًا لإنفاقها في التعمير والخدمات حقق من خلاله التنمية والعدالة الاجتماعية في البلاد.
- حول ابن تاشفين الجنود المتطوعة إلى جنود نظامية وأنشأ لهم ديوانًا مستقلًا ينظم شئونهم المالية والإدارية.
- أنشأ ديوانًا لضرب النقود «دار السكة»، وتوجد بمتحف النقود بالرباط حاليًا نماذج للنقود المرابطية بينها الدينار الذهبي وكسوره والدراهم، ومنها دينار يحمل الكتابة التالية: الوجه الأول: سطر «١» لا إله إلا الله، سطر «٢» محمد رسول الله، سطر «٣» أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وحول السطور دائرة مكتوب بها ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الوجه الثاني: الأمير عبد الله العباسي، والدائرة المحيطة مكتوب بها تاريخ الضرب ومكانه؛ مراكش.
- نشأ في عهد ابن تاشفين نظام للوزارة، وتكونت هيئة استشارية من العلماء لإقامة منهج الشورى الإسلامي، كما نشأ نظام قضائي حرص أمير المسلمين على دعمه بأفضل العناصر والإمكانيات لإقامة العدل وشريعة الله في البلاد.

وإذ تهيأت الدولة المرابطية في المغرب وإفريقيا للاستقرار وفتح الله عليها من بركاته صكت أسماع الأمير يوسف صرخات استغاثة انطلقت من هناك، من الجانب الآخر لمضيق جبل طارق، من الأندلس الجريحة، أفتراه يلبي النداء؟!

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٩.

رعي الإبل أم الخنازير؟!

كانت الأندلس تحتضر بعد سقوط درة المدائن «طليطلة» في أيدي قوات التحالف الصليبي، وقد رجّعت أصداء أنينها جنبات العالم الإسلامي المشتعل بنيران الفتن والمبتلى بالتشرذم وبالتصارع والقابع خليفته هنالك في بغداد كخيال المآتة لا يحرك ساكنًا.. ولا يستطيع، ولقد ترنحت دويلات الطوائف الأندلسية تحت وقع الصدمة وبدأت تستقبل اللاجئين الفارين من طليطلة بعدما دخلها ألفونسو السادس فأعمل فيهم القتل والتذبيح دون تمييز بين شاب أو طفل أو مسن، وهدّم المساجد وأحرق المصاحف، واغتصب جنودُه النساء واستولوا على الأراضي والممتلكات، وانهارت الروح المعنوية نحو الحضيض، وهو ما يمكن أن نستشفه بوضوح من مطالعة الأدب الأندلسي خلال تلك المرحلة.. ومن ذلك قصيدة الشاعر المعروف ابن العسال الطليطلي التي تنضح بروح اليأس والهزيمة المستشرية والتي يدعو فيها أهل الأندلس كلهم - ليس أهل طليطلة فقط - إلى الرحيل منها لأنه لا فائدة تُرجى من مواجهة العدو القوي الذي استولى على عاصمتهم.. وفيها يقول:

يا أهل الأندلس حثوا مطاياكم فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولًا من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفط

سطعت الحقائق وانكشف المستور وظهرت الطرق الدبلوماسية التي اتبعها المعتمد ابن عباد مع القشتاليين في ضوء تلك الحقائق مجرد أساليب ملتوية للتهرب المخزي من المواجهة الحتمية التي لا بد آتية يومًا بعزة أو بذلة، فلما حدث ما حدث بين المعتمد

وألفونسو وظهرت نية الأخير في اجتياح إشبيلية كخطوة منطقية تالية للاستيلاء على طليطلة وبدأ الحصار انعقدت قمة ملوك الطوائف في قرطبة بدعوة من ابن عباد لتدارس الموقف كما ذكرنا سابقًا، إلا أنه ومع الخطر الماثل أمامهم لم يبد أن التجربة المريرة قد علمتهم شيئًا، وسرت بينهم همهمات التخاذل المعتادة والتي تدور كلها حول ضعفهم وقوة عدوهم وتمكنه، وعبثًا حاول أمير بطليوس الشجاع المتوكل على الله بن الأفطس أن يحرك فيهم شهامة الإسلام وعزته.. لكنهم أخلدوا إلى الأرض وانحصرت مداولاتهم في أمر واحد هو كيف يدارون ألفونسو ويأمنون شره بالوسائل السلمية الحكيمة!

أمر هام جدير بالتوقف عنده في تلك اللحظة التاريخية، ذلك أن مؤتمرًا جماهيريًّا انعقد موازيًا لقمة قرطبة شحذ فيه علماء الأمة الهمم وأبطلوا الحجج الواهية وأوضحوا للناس أن الجهاد وحده هو القادر على إخراجهم من هذا الذل والهوان الذي لطخهم به قادتهم، وقد شجعت تلك الصحوة الجماهيرية والصلابة التي أبداها العلماء في مواجهة تخاذل القادة أمير بطليوس على أن يقترح على ملوك الطوائف الاستنجاد بأمير المسلمين؛ وهو الأمر الذي أفزعهم؛ خوفًا على عروشهم أن يضمها المرابطون إلى دولتهم مترامية الأطراف فتخاذلوا وتراجعوا وأبدوا استعدادهم لتقديم مبادرة سلام لألفونسو علَّه يتركهم في حالهم وينصرف نظير مضاعفة الجزية التي يدفعونها له وتمديد معاهداتهم معه ـ التي لم يحترمها ـ ولو بمزيد من التنازلات، ومن ذلك قول عبد الله بن سكوت حاكم مالقة: «لا يجتمع السيفان في غمد واحد».

كان المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية ـ أكبر دويلات الطوائف في ذلك الحين والمحاصرة من العسكر القشتالي ـ هو الداعي لقمة قرطبة، وقد جلس حزينًا صامتًا منصتًا للاقتراحات المقدمة والردود عليها، إلا أن اقتراح أمير بطليوس الاستنجاد بدولة المرابطين استوقفه فأخذ يفكر فيه على ضوء المناقشات التي دارت، حتى طلب أحد الأمراء الكلمة ليقول: «إن التحالف مع ألفونسو أولى من الاستنجاد بمرابطي الصحراء رعاة الإبل».

وكأنما لطمت العبارة الأخيرة ابن عباد فردته إلى وعيه وتداعت أمامه صور القتلى والمشردين من طليطلة، وما بلغه من أخبار إحراق بيوت الله بحقد صليبي غادر وإهانة

ألفونسو له رغم تحالفهما ورغم ما قدمه له من خدمات وصلت إلى حد التآمر حين استنجدت به الجارة الشمالية المحاصرة فصم الأذن عن صرخات الاستغاثة متعللًا بمعاهدة الذل التي داسها القشتاليون بأقدامهم في طريقهم إلى إشبيلية حين جاء دورها لتذوق مرارة الكأس التي تجرعتها طليطلة، صكت أذنه بعنف كلمة الأمير الأندلسي المتخاذل وهو يفضل التحالف مع عدو الله على الاستنجاد بالأمير المسلم تعاليًا على رعاة الإبل.. متناسيًا أن أسلاف هؤلاء الرعاة هم الذين حرروا أجدادهم من نير الاضطهاد الديني وأخرجوهم من الظلمات إلى النور وجعلوا من أرض الهمج أعظم بلدان أوروبا، وصنعوا من هذا التافه الجبان أميرًا يجاور الملوك، نظر ابن عباد إليه في غيظ وهو يتذكر كلمات العلَّامة الكبير ابن أدهم قاضي قرطبة حين نصحه بألا يتحالف مع عدو الله ألفونسو وذكَّره بكلمات الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾[1]، وخوّفه من مصير المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[2]، تذكر لحظتها أنه غضب من ذلك النصح المخلص وأمر ابن أدهم بالكف عن الحديث بل و.....، وضع رأسه بين كفيه في أسى مستعيدًا كلمات رب العزة سبحانه التي تعلمها ولم ينتفع بها فضربته المذلة بعد عز ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[3]، ها قد آن أوان الرجوع إلى الحق، الرب يختبركم يا قادة الأندلس فإما عودة إلى دينه وإما ندم إلى الأبد.

وأخيرًا تحدث المعتمد بن عباد فسجل التاريخ بأحرف نورانية تلكم الكلمات التي قالها في قوة وحسم وتصميم: «لأي شيء أَدَع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه؟ واللهِ لا

---

(١) سورة آل عمران، آية ٢٨.

(٢) سورة النساء، آية ١٣٩.

(٣) سورة المائدة، آية ٥١، ٥٢.

يُسمع عني أبدًا أني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليّ اللعنة من على منابر الإسلام مثلما قامت على غيري، واللهِ لرعي الإبل في صحراء المغرب خير لي من رعي الخنازير في جبال قشتالة».

هلل المتوكل أمير بطليوس لكلمات ابن عباد وانضم إليهما عبد الله بن بلقين أمير غرناطة فأصبحوا قوة في مواجهة المتخاذلين من صغار الأمراء، وهكذا انتهى مؤتمر قرطبة بالاتفاق على التعجيل بإيفاد بعثة رسمية إلى مراكش.

العبور الثاني العظيم

في غفلة من ألفونسو السادس ورجاله المطمئنين إلى تشرذم قادة الأندلس وعدم قدرتهم على الاتفاق على موقف موحد، تم إيفاد بعثة رسمية إلى مراكش عاصمة المرابطين تكونت من أبي بكر بن زيدون وزير المعتمد وثلاثة قضاة هم: عبد الله بن أدهم قاضي قرطبة ـ رئيسًا للبعثة ـ وابن مقانا قاضي بطليوس وابن القليعي قاضي غرناطة، وقد حملت معها رسالة طويلة من المعتمد بن عباد إلى أمير المسلمين وناصر الدين ـ كما خاطب ابن تاشفين في ديباجتها ـ يستنصره فيها ويدعوه للعبور إلى الأندلس أرض الجهاد لإحياء شريعة الإسلام، ومن الممتع حقًّا أنك تجد بجانب تلك الرسالة الملكية الموثقة والمؤرخة غرة جمادى الأولى عام ٤٧٩ هـ ـ ١٠٨٦م عددًا من الرسائل التي حملتها البعثة من علماء الأندلس وقادة الفكر فيها تدعو المرابطين إلى الانضمام إلى مسلمي الأندلس الذين اعتزموا مقاومة القشتاليين، وهو ما أثر بشدة في نفوس المرابطين، خاصة بعدما علموا بتفاصيل ما يقاسيه إخوانهم من هزيمة وقهر وترويع على أيدي التحالف الصليبي الهمجي.

استقبل يوسف بن تاشفين البعثة الأندلسية وأنزلهم في دار الضيافة بمراكش حتى تتم المفاوضات بين الطرفين، وفي تلك الأثناء وفدت على الأمير عدة وفود من مسلمي الأندلس يستجيرون به من عدوهم، فقابلهم بنفسه ووعدهم خيرًا، والحقيقة أن ابن تاشفين لم يتردد لحظة في الإسراع لنجدة إخوانه المسلمين في الأندلس، وحين وصلته رسالة ابن عباد كان قد مضى على توليه إمارة المرابطين خلفًا لابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر أكثر من أربعة عشر عامًا توسعت خلالها دولته حتى أصبحت إمبراطورية عظمى

قوية غنية ومستقرة على نحو ما ذكرنا، كما كان الأمير ذاته قد جاوز السبعين من عمره، وآن للفارس الذي خاض المعارك أن يستريح، إلا أن أمير المسلمين وناصر الدين ـ حقًّا لا لقبًا أجوف فارغًا ـ أضمر في نفسه أمرًا أثناء لقاءاته مع البعثة الرسمية والوفود الشعبية.. فدعا أعضاء الهيئة الاستشارية للدولة للانعقاد حتى يعرض عليهم الأمر.

ما كان أحد من المرابطين كبيرهم ولا صغيرهم ليحجم عن الاستجابة لداعي الجهاد في سبيل الله وقد تأسست دولتهم على عقيدة سليمة ركناها التليدان الدعوة والجهاد، لذا فما إن عرض ابن تاشفين الأمر على مستشاريه حتى وافقوا بلا استثناء، غير أن أحدهم ـ عبد الرحمن بن أسبط وهو أندلسي الأصل ـ لفت نظر الأمير إلى أمر شديد الأهمية يتعلق بالطبيعة الجغرافية للأندلس كأرض ضيقة عرجة وعرة تعترض طرقاتها الجبال حتى إن من يدخلها يصبح أشبه بالسجين فلا يمكنه الخروج منها إلا تحت حكم صاحبها، ونبهه إلى أنه ليس بينه وبين ابن عباد صداقة متصلة فلا يأمن منه بعدما تنقضي حاجته بالظفر من العدو، لذا نصحه ابن أسبط بأن يطلب من المعتمد أن يملكه الجزيرة الخضراء ـ وهي أول أرض في الأندلس تالية للمضيق ـ حتى يستخدمها لحشد جنوده وأسلحته ويكون عبوره إليها في الوقت المناسب له، وهنا يجيب أمير المسلمين على مستشاره قائلًا بتواضع العظماء: «صدقت يا عبد الرحمن لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي، اكتب إليه بذلك»، وهكذا يرسل ابن تاشفين لابن عباد ملبيًا دعوته للنصرة وطالبًا إرسال عقود الجزيرة الخضراء، وقد استوقفتني في تلك الرسالة الطويلة فقرة يقول فيها أمير المسلمين لحاكم إشبيلية: «نحن يمين لشمالك ـ انظروا لروعة العبارة ـ ومبادرون لنصرتك وحمايتك وواجب علينا ذلك في الشرع وكتاب الله تعالى... إلخ».

أما الأمر الذي أضمره الأمير يوسف فهو عزمه على قيادة جيش الإنقاذ بنفسه رغم تقدمه في السن وانشغاله بأحوال البلاد، لذا قال لمن حاول إثناءه عن عزمه: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى الأمر أحد إلا أنا بنفسي»، قالها وانطلق كشاب يحرض جنوده على القتال في سبيل الله، وأرسل في أنحاء البلاد يدعو من يجد في نفسه أهلًا لهذا الشرف فتقاطر عليه المتطوعون من كل مكان.. يحدوهم الأمل في نصر الله تعالى وفي استنقاذ الأندلس من مصير مظلم ينتظرها إن هي ارتدت لجاهليتها الأولى

بعدما أنار الإسلام جنباتها ثم سطع نوره ليضيء للأوروبيين طريقًا يتلمسونه للخروج من كهوف عصورهم الوسطى المظلمة.

ولما وصلت عقود الجزيرة الخضراء إلى مراكش انطلقت منها قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة مدججين بالسلاح فعبروا المضيق وتمركزوا في الجزيرة الخضراء بأقصى جنوب الأندلس، ثم توالى عبور القوات حتى استكمل الجيش أهبته وأخذ استعداده، وحينها آن لابن تاشفين أن يعبر ومن معه من قوات تكونت من كبار رجال الدولة وزعماء القبائل وأمراء المناطق وذرياتهم الذين أثارت حماستهم مبادرة الأمير فتنافسوا في الانضمام لجيش يقوده بنفسه، وبذلك بدأ العبور الثاني العظيم للبربر المسلمين الذين مروا من هذا المضيق بقيادة طارق بن زياد قبل ما يقرب من أربعة قرون مضت رافعين راية التوحيد ليُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ها قد عاد الرجال الذين لا يصلحهم سوى الإسلام وحده.. عادوا وفي صفوفهم إخوانهم المسلمون من جند السودان الغربي الذين دخلوا في دين الله على يد المرابطين.. هكذا عاد الرجال رهبان الليل فرسان النهار ليسطروا صفحات المجد من جديد في سفر التاريخ الإنساني.

حين استوى ابن تاشفين على ظهر سفينته رفع كفيه إلى السماء ثم دعا قائلًا: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحًا للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه»، ويسر الرب تبارك اسمه لأمير المسلمين وجنده العبور حتى نزلوا الجزيرة الخضراء فوجدوا في استقبالهم المعتمد بن عباد وأمراء الجنوب الشرقي الأندلسي: غرناطة وألمرية وبلنسية الذين وضعوا أنفسهم تحت إمرته ليقود معركتهم دفعًا للتحالف الصليبي في معركة من أروع وأهم وأجل المعارك في التاريخ الإسلامي كله والتي لا تقل في أهميتها عن موقعة الفتح الأندلسي «وادي لكة» حيث أمدت في عمر الدولة الإسلامية في الأندلس ما يزيد على أربعة قرون أخرى لم تكن إضافة إلى التاريخ الإسلامي وحده وإنما كانت سببًا في تعديل مسار التاريخ الإنساني بأكمله.

الزّلاقة

على طول الطريق الموصل من الجزيرة الخضراء حتى إشبيلية محل إقامة ابن تاشفين تجمهر أهل الأندلس لتحية البطل المغربي وتهللت الوجوه بعد طول اكتئاب واصطحب القرويون أطفالهم لمشاهدة أمير المسلمين الذي سيصبح لزمن طويل قادم رمزًا لعزة الإسلام وبطلًا لحكايات النصر المجيدة ترويها الأمهات لأطفالهن وهن يحثونهم على الاقتداء به في النخوة والشجاعة والتجرد لله سبحانه وتعالى، تلك القيم العليا التي ستقتات الأندلس من ثمراتها الطيبة أجيالًا متعاقبة وقرونًا عديدة تالية ظلت فيها المنارة الهادية لخطى البشرية المتعثرة في ظلمات الجهل والجاهلية.

أما ابن تاشفين فبقدر ما اغتبط لحسن استعداد جيش المرابطين وصلابته بقدر ما اغتم لما طالعه في إشبيلية من مظاهر الخروج على حدود الله ومن ترف جاوز حد المعقول أتبعته رخاوة بادية على شبابها بل وعلى جندها الذين استعرضهم مع المعتمد ليصنع منهم فيلقًا يضعه في مقدمة الجيش، كما أصر ابن عباد رغبة منه في التكفير عن جريمته الشنعاء في التخلي عن مناصرة طليطلة قبل سقوطها.

أما ما أثلج صدر أمير المسلمين حقًّا فكانت تلك المبادرات التي قام بها الأندلسيون البسطاء الذين أيقظت حسهم الإيماني جهود علماء المسلمين طوال السنوات المنصرمة فتباروا في تقديم كل ما يملكون إلى الجيش المرابطي فكانوا يأتون لهم بالماء وبالطعام وبالوقود وبالعلف لخيولهم وجِمالهم التي اصطحبوها معهم من المغرب، وكانوا يتنافسون في ذلك تنافسًا كشف لابن تاشفين ما تحت رخاوة الظاهر من قوة الإيمان التي تصلح قاعدة جديدة لبناء جديد.

رتب يوسف بن تاشفين جيش الإنقاذ فقسمه إلى قسمين: الجيش الأندلسي على مقدمته المعتمد حاكم إشبيلية وعلى ميمنته المتوكل حاكم بطليوس، بينما أهل الشرق على الميسرة، والجيش المرابطي يقود فرسانه داود بن عائشة وراجلته سير بن أبي بكر.. بينما انعقدت قيادة الجيش الإسلامي بقسميه والذي بلغ نحو أربعة وعشرين ألف جندي لابن تاشفين، وما أن تمت الاستعدادات حتى بدأ تقدم الجيش نحو الشمال فعبروا بطليوس وعسكروا في سهل الزلّاقة شمال ماردة وبطليوس إلى الجنوب الغربي من طليطلة مقر قوات الاحتلال القشتالي.

على الناحية الأخرى، ما إن وصلت ألفونسو أخبار عبور يوسف بن تاشفين ونزوله بالجزيرة الخضراء حتى طيّر الرسائل إلى حلفائه في كل مكان وإلى البابا في روما مستنجدًا، فتقاطر عليه المتطوعون من كل صوب يدفعهم بريق ذلك الوعد الذي قطعته الكنيسة بمنح صكوك الغفران لكل من يشارك في الحرب المقدسة، حتى بلغ عدد الجنود في الجيش الصليبي أكثر من ستين ألف فارس يرتدون دروع الحديد من رءوسهم حتى أقدامهم، وقد تقدم صفوفهم رجال الدين الكاثوليكي رافعين الأناجيل والصلبان لإذكاء المشاعر ولإثارة الحماس، ولما اكتمل الاستعداد ورتب ألفونسو جيشه الجرار نظر إلى الصفوف مغتبطًا وتمثل أمامه حلم الاستيلاء على الأندلس وما يرتبط بذلك من أمجاد ستدوي ترانيمها مع أجراس الكنائس في جنبات أوروبا فقال لمن حوله بكبرياء من استذل ملوك الأندلس زمنًا طويلًا: «بهذا الجيش ألقى محمدًا وآله والإنس والجن والملائكة».

وفقًا للنهج الإسلامي أرسل ابن تاشفين رسالة إلى ألفونسو يُخيره فيها بين ثلاث: الدخول في الإسلام.. أو الاستسلام ودفع الجزية.. أو الحرب، فاختار الأخير الحرب وأرسل إلى ابن تاشفين رسالة كتب فيها: «إن غدًا يوم الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنه عيدكم وبعده السبت عيد اليهود وهم كثير في محلتنا وبعده الأحد عيدنا فنحترم هذه الأعياد ويكون اللقاء الاثنين»، انخدع ابن تاشفين بما أبداه ألفونسو من احترام للأعياد الدينية.. لكن المعتمد بن عباد الذي ذاق مرارة مخادعته طويلًا قال: «ما أظن هذا الخنزير إلا يريد خديعتنا، فليكن الناس على استعداد له طوال نهار الجمعة»، ولقد صح ظن ابن عباد فما أن بدأ المسلمون صلاة الجمعة وعقدوا الركعة الأولى خلف أمير المسلمين إلا وانقض عليهم جيش ألفونسو فتصدى له الجيش الأندلسي بقيادة المعتمد

الذي كان يقظًا وعلى أتم استعداد لهذه الخديعة المتوقعة، وفي ذلك اليوم أظهر المعتمد ابن عباد من الفروسية والبطولة والشجاعة ما خط به لنفسه صفحات وضيئة في سفر التاريخ الإسلامي شكلت إلى جانب صيحته الأبية «رعي الإبل خير من رعي الخنازير» صورة فارس تترقب الملايين جيلًا بعد جيل أن يجود الزمان بمثله، وقد كان حريًا به ـ لولا تلك الصيحة المباركة ـ أن يظل ورقة مهملة لأحد ملوك الطوائف الهالكين الذين لم يجلبوا لأمتهم سوى الخزي والمذلة والعار.. ورقة يلقي بها الزمن في ازدراء إلى قمامة التاريخ.

كانت خطة ألفونسو أن يقضي أولًا على الجيش الأندلسي الذي خبر رخاوة جنوده من قبل فلا يتبقى سوى جيش المرابطين وهم غرباء عن البلاد لا يعرفون مسالكها فلا يصبح أمامهم سوى العودة إلى بلادهم فتسقط دويلات الأندلس في قبضته دونما جهد يذكر، لكنه لم يضع في اعتباره تلك الروح الجهادية العالية التي نفثها عبور المرابطين في روح الجيش الأندلسي الذي بذل جنوده في ذلك اليوم المجيد دماءهم رخيصة في سبيل الله، وهكذا أفزعت بطولات الفئة القليلة ـ ٢٤ ألف جندي بين فارس وراجل ـ الفئة الكثيرة ـ ٦٠ ألف فارس مدرع بالحديد ـ فتراجعت صفوف الصليب إلى الخلف مذعورة وانهزم جند التحالف أمام شجاعة جند الله وحرصهم على الشهادة في سبيله، لذا كانت مفاجأة ألفونسو مروعة حين علم بمقتل عشرة آلاف من فرسانه في الساعات الأولى من القتال فأخذ في التقهقر بينما جنود المسلمين يتقدمون في ثبات حتى وصل الجميع إلى حدود طليطلة ففر ألفونسو إلى داخلها زحفًا جراء إصابته بجراح ومعه شراذم جنده وقد فقدوا خيولهم وسقطت عنهم دروع الحديد وبدوا كالمشردين الفارين من وغى المعركة.

كان الليل قد أرخى سدوله حين وصل الفريقان إلى حدود طليطلة، فلما احتمى بها ألفونسو حاول المسلمون اللحاق به فمنعهم ابن تاشفين قائلًا: «الكلب إذا وهم لا بد أن يعض، وقد سلم الله المسلمين من معركة لم يقتل منهم إلا القليل فاتركوهم»، ترى أكان ذلك المنع تدبيرًا حكيمًا من أمير المسلمين حرصًا على جنوده من معركة داخلية غير مأمونة العواقب؟! أم تراه كان خطأً سياسيًّا وعسكريًّا فادحًا أضاع فرصة بدت يومها مواتية لتحرير درة المدائن؟! وهي فرصة لم تسنح للمسلمين مرة أخرى إذ لم ترجع طليطلة إلى حوزة المسلمين منذ احتلها ألفونسو السادس عام ٤٧٨هـ وحتى يومنا هذا.

غروب وشروق

كان النصر الهائل الذي تحقق في الزلّاقة عام ٤٧٩هـ بمثابة ضمادة لجراح العالم الإسلامي النازفة بسبب مأساة سقوط طليطلة قبل عام مضى، فعمَّت الأفراح وأعتقت الرقاب وتردد اسم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين شرقًا وغربًا محاطًا بكل آيات المحبة والتبجيل، أما هو فقد كان يستعد للعودة إلى المغرب بعدما وزع مغانم الموقعة على الأندلسيين مترفعًا وجنوده عن مشاركتهم فيها، وذلك في لقطة تاريخية نادرة تستحق مزيدًا من الضوء، وقد اجتمع قبل رحيله بملوك الطوائف وأخذ عليهم العهد ألا يرجعوا إلى ما كانوا عليه من تشرذم وتصارع وأن يتفقوا فيما بينهم لمواجهة عدوهم المشترك.

لكن ماذا يفيد العهد مع قوم أدمنوا الخلاف واعتادوا الرخاوة بديلًا عن الجهاد؟ فبينما كان البابا يحث أمراء أوروبا على دعم ألفونسو للأخذ بالثأر من المسلمين وبينما كانت طليطلة تستقبل متطوعة الصليب لتصبح قلعة حصينة منغرسة في قلب الأندلس، إذ بملوك الطوائف يعيدون سيرتهم الأولى في التصارع على المكاسب التافهة وقد تناسوا ما عاهدوا أمير المسلمين عليه من الاعتصام بحبل الله ليكونوا قوة في مواجهة عدوهم، وتتابعت مسيرتهم نحو الانحطاط رغم تلبية المرابطين دعوتهم بعد مرور عام على الزلّاقة ليصدوا عنهم هجوم الصليبيين، لكن بعد مرور عام آخر وصلت لابن تاشفين استغاثة.. بل عدة استغاثات.

ضجت شعوب الأندلس وعلماؤها من سياسات حكامهم، وتيقن العقلاء منهم أن مصير طليطلة السليبة أصبح يهدد سائر بلاد الأندلس فتوجه فوج إلى مراكش ليقابل

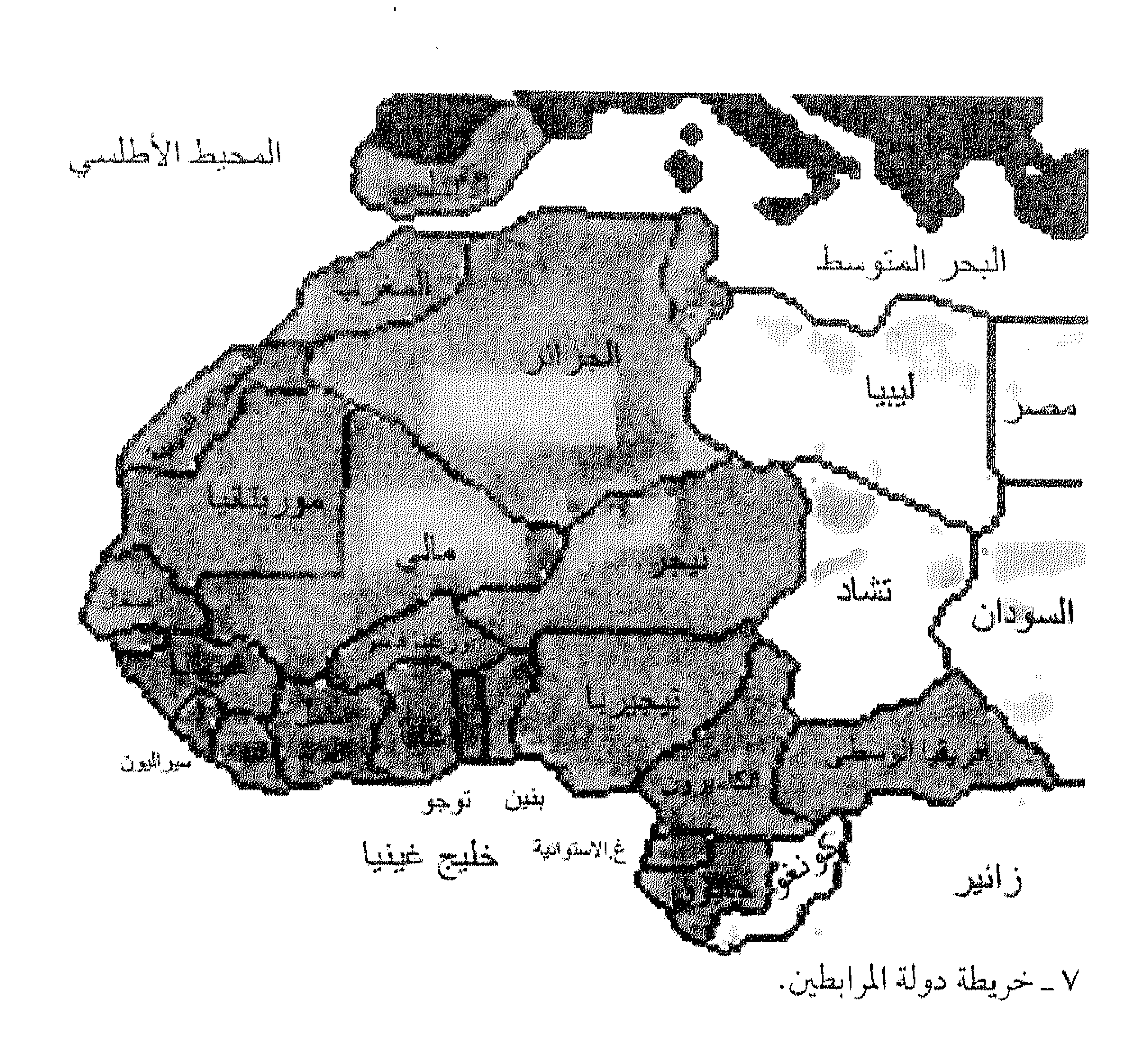
ابن تاشفين وليطلعه على الوضع الحقيقي للأندلس التي أصبحت على شفا الهاوية، ويعود معهم ابن تاشفين محاولاً الإصلاح ويبذل الجهد المخلص أعوامًا في محاولة لاستنقاذ الأندلس إلا أنه يدرك أخيرًا أن إنهاء حكم الطوائف وتوحيد الأندلس تحت راية واحدة هو الطريق الوحيد لإنقاذها من المصير المظلم الذي يتربص بها، وقد التقت على ذلك إرادة شعوب الأندلس الثائرة على حكامها كما كان ذلك هو رأي فقهاء المغرب والأندلس، بل وفقهاء المشرق الإسلامي الذين حرص ابن تاشفين على استفتائهم فوردت عليه فتاواهم - في مقدمتهم الإمام الغزالي وأبو بكر الطرطوشي - مؤيدة لإسقاط حكم الطوائف.

وفي عام ٤٨٤هـ الموافق ١٠٩١م يُسدل الستار على تلك الحقبة المظلمة من التاريخ الأندلسي التي كادت تودي بالدولة الإسلامية عند منتصف مسيرتها الحضارية حيث يتم إسقاط حكم الطوائف وتوحيد الأندلس ثم ضمها كلها - عدا طليطلة السليبة - إلى دولة المرابطين.. تلك الدولة العظيمة التي كان منشؤها قبسة من نور قذفها الرب تبارك وتعالى في قلب العابد المخلص عبد الله بن ياسين حين وقف ذات يوم يؤذن بصوته الشجي وحيدًا في البرية، ها هي قبسة النور تنتشر على امتداد الأفق فتغمر الدنيا كلها، وها هو الرباط الذي أقامه من حزمة من أفرع الشجر اليابسات في نقطة غير مرئية هناك عند مصب نهر السنغال يتسع خلال أربعين عامًا فقط ليشكل إمبراطورية هائلة تضم العديد من الدول وفقًا للتقسيم السياسي المعاصر «إسبانيا - البرتغال - صقلية - تونس - الجزائر - المغرب - جزر الكناري - الصحراء الغربية - موريتانيا - السنغال - مالي - النيجر - بوركينا فاسو - جامبيا - نيجيريا - غانا - ساحل العاج - غينيا - غينيا بيساو - سيراليون - ليبريا - ساحل العاج - توجو - بنين - الكاميرون - غينيا الاستوائية - الجابون - إفريقيا الوسطى»، وتشمل عدة مناطق جغرافية وسياسية لم تعرف التوحد طوال تاريخها إلا في تلك الفترة الزاهية الزاهرة من تاريخنا المجيد.

تلك الوقفة الحازمة التي وقفها ابن ياسين في مواجهة ظلاميي الصحراء، وهذه الصيحة المخلصة التي أطلقها ابن عباد في وجوه متخاذلي الأندلس أمدتا في عمر الدولة الإسلامية في أوروبا لأكثر من أربعة قرون أخرى قُدر لها أن تغير العالم بأسره، ولو

استسلمت لرغبتي في بيان ذلك لاحتجت إلى صفحات طوال لكني سأكتفي هنا بإشارة سريعة:

- اكتشاف العالم الجديد، نتيجة ما أثبته علماء المسلمين من أن الأرض كروية فلا يمكن أن يكون نصفها يابسة والنصف الآخر كله ماء وإلا فقدت اتزانها، لذا انطلقوا لاكتشاف ما وراء بحر الظلمات، وقد أثبتت الدراسات الحديثة وصول المسلمين إلى أمريكا ومن ذلك عثور الإسبان في مكتبة الإسكوريال بمدريد على خريطة صنعها ابن الزيات المتوفى عام ١١٩٨م وفيها بيان واضح للأطلسي وللجزر الأمريكية المأهولة.



٧ ـ خريطة دولة المرابطين.

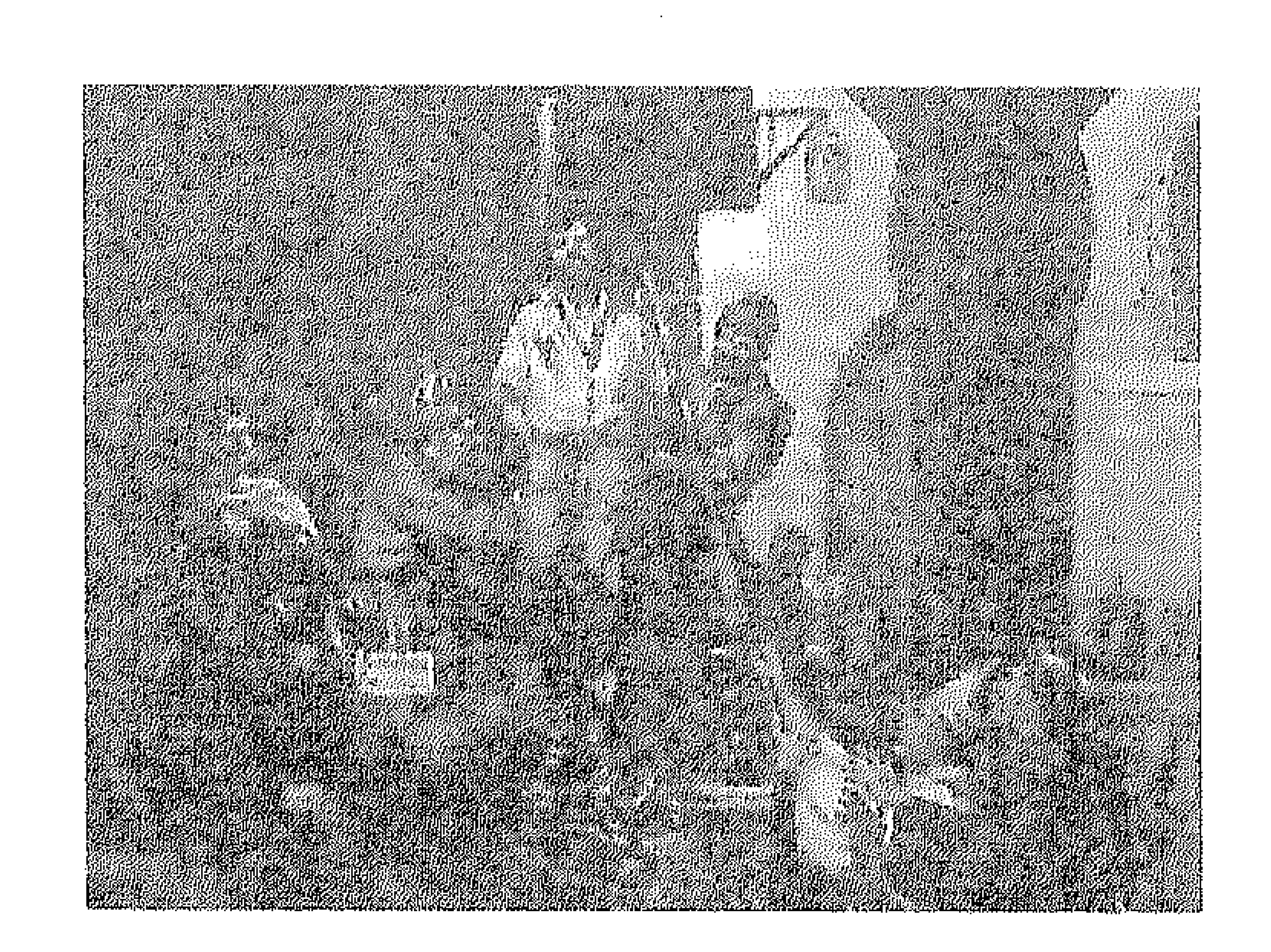
- تأسيس علم الاجتماع، على يد العالم والمؤرخ الأمازيغي ابن خلدون الذي عاش في الفترة من ٧٣٢هـ إلى ٨٠٨ هـ، وكان أول من وضع الأسس الحديثة لعلم الاجتماع، وعنه أخذ أوجست كونت وغيره.

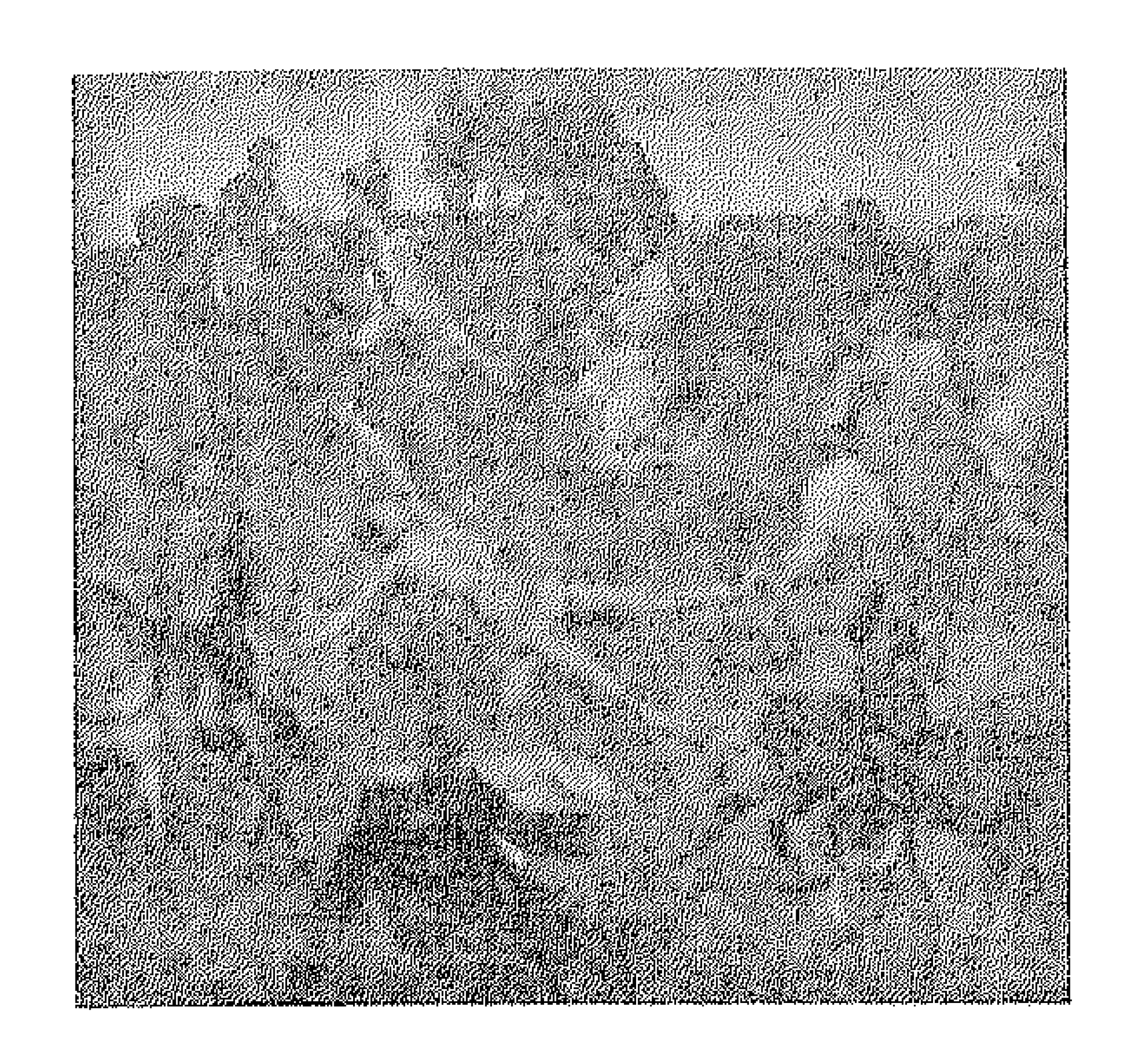
- نشأة الدولة المدنية الحديثة في أوروبا، وإنهاء الحكم الثيوقراطي المطلق بها نتيجة تعلم مفكري أوروبا في الأندلس، ومنهم توماس الإكويني الذي استقى نظرية حق الشعب في اختيار حكامه ومساءلتهم من مؤلفات الفكر السياسي الإسلامي خاصة للغزالي وابن رشد.

- الثورة العلمية في أوروبا نتيجة اعتماد المنهج التجريبي للمسلمين، وذلك عن طريق الاتصال بعلماء الأندلس الذي نبه الأوروبيين إلى عدم صلاحية الأسلوب العقلي النظري الذي اعتادوه في الدراسات العملية.

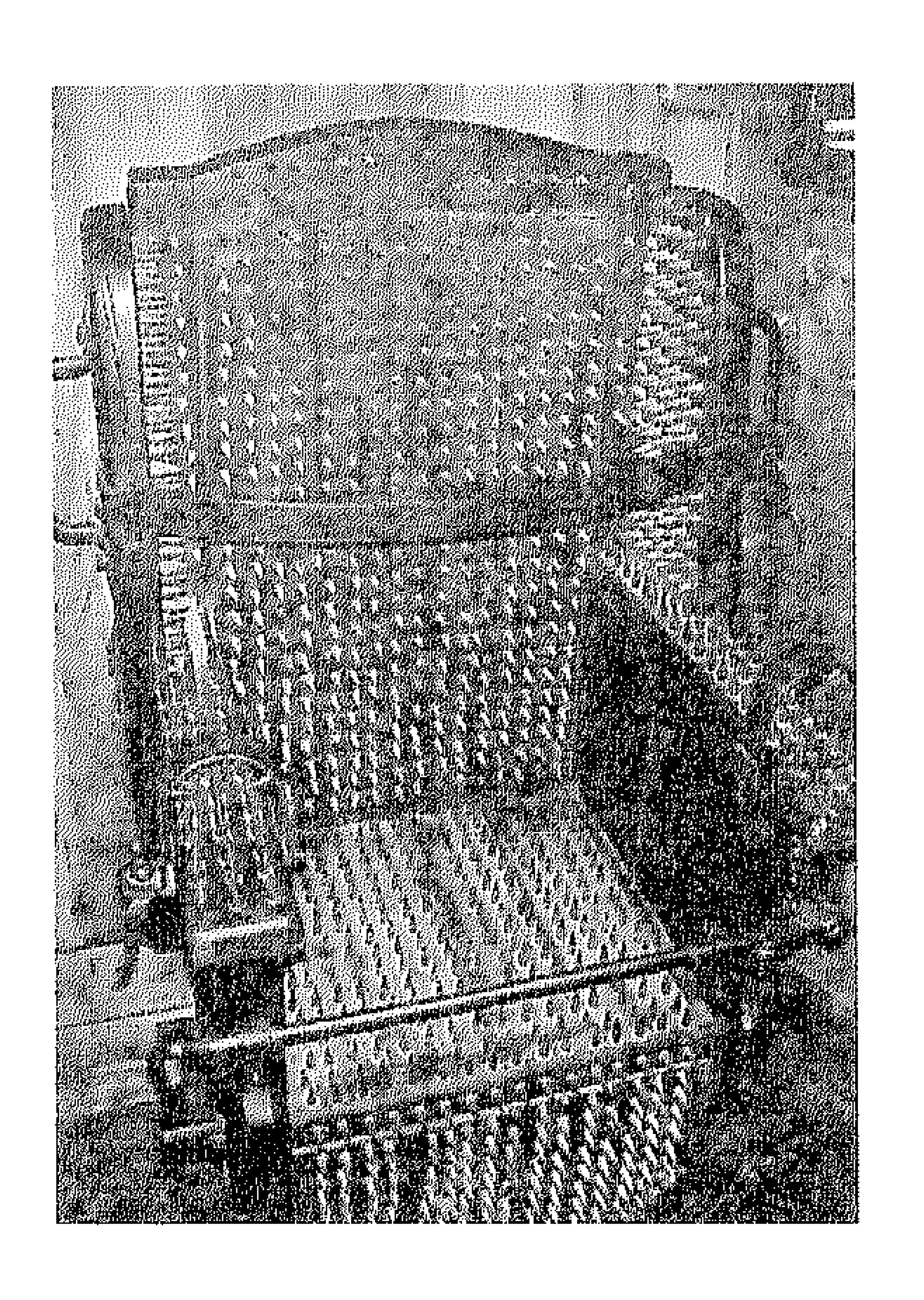
ذاك غيض من فيض ما قدمه المسلمون للإنسانية خلال تلك المرحلة التي امتدت لأكثر من أربعة قرون من عمر الزمان قدر الله أن يبقوا فيها في الأندلس، ولأن الأيام دول يأتي على دولة الإسلام في الأندلس دور الانحلال حين تضرب المذلة أمراء ليس من بينهم المعتمد بن عباد ليكرر قولته الباقية عبر القرون: «رعي الإبل خير من رعي الخنازير»، بعد أربعة قرون يأتي أبو عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة ليسلمها بمعاهدة خيانة وذل وهوان لفرناندو وإيزابيلا مفضلًا الخنازير على الإبل فتدوسه الخنازير بأقدامها وتنتهك معاهدته وتلقي به خارج وطنه ليموت ذليلًا مخذولًا في غربته بعد أن سلم أهله للمجرمين ليخرجوهم من دينهم ثم ليحرقوهم أحياء في فاجعة تاريخية استمرت لقرنين من الزمان بدأت بمحاكم التفتيش البابوية ثم بالإبادة الجماعية وبالتنصير الجبري لأهل الأندلس، وانتهت بأجيال متعاقبة قاست الويلات وهي تتكتم سر التوحيد كما فعل أسلافهم القوط من قبل.

وهكذا غربت شمس تلك الدولة العظيمة التي شارك البربر بدور كبير في إقامتها، لكن الإسلام باق لا ينتهي ولا تغرب شمسه أبدًا، فقافلة التوحيد ماضية عبر الزمان لا تحيد عن طريقها وإن قل أتباعها وتبعثر زادها وناوشتها وحوش الفلاة، وحين يعز المسير لخلل في قيادة القافلة يهرع من يقوم بأمرها ويمسك بزمامها ليخطو بها ومعها ناشرًا نور الرب تقدست أسماؤه في ربوع الزمان والمكان مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا









٨ ـ بعض وسائل محاكم التفتيش البابوية لتنصير مسلمي إسبانيا.

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[1]، ولقد أتى الله بهؤلاء القوم.

(١) سورة المائدة، آية ٥٤.

ففي عام ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م إبان احتضار دولة الأندلس وقبل أن تسقط آخر معاقلها ـ غرناطة ـ بأربعين سنة تتحقق نبوءة رسول الله ﷺ بفتح القسطنطينية وذلك على يد أحد سلاطين بني عثمان الذي سيلقب منذ ذلك التاريخ بمحمد الفاتح، ذلك القائد الفذ الذي سيقبض وقومه على زمام قافلة التوحيد لتحويل مسيرتها المباركة من المغرب إلى المشرق لتنير الدنيا لقرون قادمة، فالقافلة لا تتوقف أبدًا ولا تحيد عن طريقها وإن تخلى المتخلون وانحرف المنحرفون فهي ماضية في سبيلها تنفي خبثها فينضح طيبها، لا ينجو إلا من لحق بها ولا يخيب إلا من تاه عنها أو حاول أن يضع العراقيل في طريقها، وإن فريقًا أعرض أو تولى استبدل الله به فريقًا خيرًا منه يرد عليها عافيتها ويعيد لها نشاطها مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[1] فليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب.. ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا لبربري على تركي، ولا لفرنسي على إثيوبي، ولا لياباني على كوري، ولا لألماني على أمريكي، ولا لصيني على فنزويلي إلا بالتقوى «كلكم لآدم وآدم من تراب»[2].

إنها الرفعة الإنسانية في ذُرى مجدها..

إنه الإسلام...

---

(١) سورة محمد، آية ٣٨.

(٢) سنن أبي داود، والترمذي، عن أبي هريرة.

المراجع

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ الجزء الثالث/ الكتاب الثالث: البربر.
- الإنجيل ـ العهد الجديد وأعمال الرسل ـ دار الكتاب المقدس ـ القاهرة ١٩٩٤.
- الناني ولد الحسين ـ صحراء الملثمين ـ دار المدار الإسلامي ـ بيروت ٢٠٠٧.
- بيتر دي روزا (القس اللاهوتي) ـ خُدام الرب الأوائل ـ ترجمه عن الطبعة الألمانية آسر حطيبة ـ الطبعة الأولى ـ الدار المصرية للنشر والتوزيع ـ القاهرة ١٩٩٤.
- د. حامد سلطان ـ أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٧٤.
- زكي شنودة ـ موسوعة تاريخ الأقباط ـ الجزء الأول/ ط٢ ـ بدون ناشر (مطابع البلاغ بالقاهرة) ـ ١٩٦٨.
- د. سعد زغلول عبد الحميد ـ تاريخ المغرب العربي ـ منشأة المعارف/ الإسكندرية:
  - ـ الجزء الأول «من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال» ـ طبعة ١٩٩٩.
  - ـ الجزء الثالث «الفاطميون وبنو زيري» طبعة ١٩٩٨.
  - ـ الجزء الرابع «المرابطون» طبعة ١٩٩٥.
- د. سعدون عباس نصر الله ـ دولة المرابطين في المغرب والأندلس (عهد يوسف بن

تاشفين أمير المرابطين) ـ الطبعة الأولى ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٨٥.

• عبد الواحد ذنون طه ـ الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس ـ الطبعة الأولى ـ دار المدار الإسلامي ـ بيروت ٢٠٠٤.

• عبد الواحد المراكشي ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ تحقيق وتعليق د. محمد زينهم عزب ـ دار الفرجاني ـ القاهرة ١٩٩٤.

• د. علي محمد الصّلاّبي ـ الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين ـ الطبعة الأولى ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ القاهرة ٢٠٠٣.

• د. عمر أمرير ـ العادات والتقاليد الاجتماعية روافد التأثير الإسلامي إلى الأمازيغية ـ مقال بجريدة التجديد المغربية بتاريخ ١٥ فبراير ٢٠٠٦.

• عوني عمر أوغلو ـ انتصار القيم الإنسانية في الفتوح الإسلامية ـ مقال بمجلة حراء التركية ـ العدد الرابع يولية ـ سبتمبر ٢٠٠٦.

• محمد حجي ـ موسوعة أعلام المغرب ـ الجزء الأول (١ ـ ٧٠٠ هـ) الطبعة الأولى ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٩٩٦.

• د. محمد مجدي مرجان (شماس سابق بالكنيسة الأرثوذكسية) ـ الله واحد أم ثالوث؟! الطبعة الثانية ـ مكتبة النافذة ٢٠٠٤.

• ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ الجزء الثاني من المجلد الرابع «عصر الإيمان» ـ ترجمة محمد بدران ـ صادر عن الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ـ القاهرة ١٩٥٧.

• Camps, Gabriel _ L'origine des Berbères _ Islam: Société et Communauté. Anthropologies du Mahgreb,, les Cahiers C.R.E.S.M, Éditions CNRS, Paris, 1981.

أيام الأمازيغ

الرجل الحر النبيل..

هذا هو المعنى الدقيق لكلمة أمازيجي- أو كما ينطقها ويكتبها المغاربة «أمازيغي» وهو اسم آخر للبربر له جذور فينيقية حيث أُطلقت لفظة «مازيس» على الشعوب القوية التي تمردت على الإمبراطورية الرومانية، ومن هذا الأصل أتت كلمة الأمازيغية وهي اللغة التي يتحدثها البربر.

ويعد هذا التوق للحرية ورفض الخضوع والجنوح نحو الثورة والتمرد أهم وأبرز خصائص الشخصية البربرية وهو ما جعلهم بمثابة حائط صد منيع أمام كل محاولات إخضاع المنطقة لحكم خارجي فينيقي أو إغريقي أو فارسي أو روماني أو بيزنطي، وقد كان حريًا به - على النهج ذاته أو من باب أولى - أن يصد عن المغرب الكبير جحافل الفتح العربي الإسلامي وهو ما حدث بالفعل في بداية الأمر.

تُسلط المؤلفة - عبر صفحات كتابها - الضوء على الدور العظيم الذي قامت به قبائل الأمازيغ المغربية في التمكين للدولة الإسلامية في إفريقيا، وعلى حركة الإصلاح الإسلامي التي نشأت في القرن الخامس الهجري داخل صحراء المغرب وتمكنت من إنقاذ براثن الصليبيين ومن تحقيق النصر في فترة من أحلك فترات التاريخ الإسلامي فسادًا وانحطاطًا.




ISBN 978-977-09-2901-8
9 789770 929018

دار الشروق
www.shorouk.com